الفصل الثانى

شعراء الخوارج

على الرغم من قلة ما وصل إلينا من شعر الخوارج فإنهم عرفوا بكثرة أدبائهم وشعرائهم كثرة يدل عليها ما تحفل به المصادر التى تعرضت لهم من أسماء الشعراء والخطباء منهم . وهذا أبو العيزار يقول عنهم وهو يشير إلى أحد شهدائهم :

فثوى صريعاً والرماح تنوشه إن الشراة قصيرة الأعمـــار
أدباء إما جئتهم خطبـــاء ضمناء كل كتيبة جـــرّار[1]

ونحن لا ندهش بإزاء هذه الكثرة إذا ما رجعنا إلى عناصر الخوارج البشرية إذ كانت مزاجاً من عرب العراق وأكثرهم من البدو الذين فتحوا الأمصار واستوطنوها وجمهورهم من النزاريين ومن طائفة القراء المعروفة بفصاحتها وتشددها فى الدين ، فاجتمع للخوارج إذن فصاحة اللسان وقوة الأسلوب إلى جانب قوة المعانى المصطبغة بالمثل الأعلى للإيمان والعقيدة .

وكان تعدد فرقهم وكثرة حروبهم سبباً فى أن عدداً كبيراً منهم صاروا قادة وزعماء ولم يكن أليق لذلك من الشاعر أو الخطيب الذى يستطيع أن يؤثر فى أنصاره وأن يستثير حماستهم ليدفعهم إلى أهدافهم ، وقد كان لممارستهم الفعلية للنضال من أجل عقيدتهم أثر واضح فى أن شعرهم جاء مرآة صادقة لحياتهم وصدى حقيقياً لما اشتملت عليه نفوسهم ، كما كان لكل ذلك أثر فى أن شعرهم لم يتمايز كثيراً فى صياغته فجاء وكأنه صور متعددة لنمط واحد ، وما ذاك إلا لتشابه شخصياتهم الفنية نتيجة لتشابه حياتهم وصدورهم عن عقيدة واحدة فنوا فيها وإيمان مشترك تشبثوا به ولم يشتغلوا بسواه .

وهو تشابه لم يصل إلى حد التماثل التام وقد كان ذلك سبباً فى أن أشكلت على الرواة نسبة كثير من شعرهم إلى أصحابه الحقيقيين كما مر بنا فى شأن مقطوعة

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٠٩

يوم دولاب التى اختلف فى نسبتها بين خمسة من شعراء الخوارج . وحقًّا للرواة عذرهم فى هذا التحير والاختلاف فشخصياتهم الفنية تكاد تتماثل فى صياغة شعرهم وهى صياغة تظهر أنهم إنما كانوا ينهلون من منبع واحد لا فرق فى ذلك بين شعرائهم وخطبائهم كما هو واضح فى قصيدة عمرو بن الحصين ومحاكاته فيها لخطبة أبى حمزة الإباضى ، والطريف أن أبا الفرج يتحير فى نسبة هذه القصيدة أيضاً فنسبها طوراً لعمرو بن الحصين وطوراً لشاعر آخر يدعى الحسن العنبرى[1] .

وعلى الرغم من أن شعرهم يصطبغ بلون شخصى قوى نحس فيه شخصية صاحبة كأقوى ما يمكن أن تحس شخصية الشاعر ، إلا أن هذه الشخصيات لا تمايز لاستوائها جميعاً فى القوة والاستقلال والاعتداد نتيجة لالتفافها جميعاً حول مبادئ مجردة عن التعلق بأهواء أو بأشخاص والتفاتها جميعاً إلى نفسها ودوران شعرها حول محور الذات وتصوير إيمانها والفخر بتضحياتها وانتصاراتها .

لما كان شعرهم وحى جهادهم حتى لتذهب كثرته الكثيرة فى تصوير حروبهم ومجد أبطالهم وشجاعتهم واستعذاب الموت والتضحية فى سبيل عقيدتهم ، فإننا نجد الشعراء يكثرون فى الفرق التى عرفت بكثرة حروبها ، فبينما ينتمى جمهور شعراء الخوارج إلى فرقتى الأزارقة والصفرية وهما فرقتان شهرتا بالنضال الحربى لا نجد للإباضية غير عمرو بن الحصين ونكاد لا نجد من الشعراء من ينتمى لفرقة النجدات غير عبد الله بن الحجاج .

وعلى الرغم من تنقل عبدالله بن الحجاج الثعلبى بين الفرق المختلفة فقد كان إخلاصه لمذهب الخوارج شديداً ، وتذكر الروايات أنه كان من الذين تابعوا عمرو بن سعيد فى خروجه على عبدالملك بن مروان فلما قتل عمرو خرج مع نجدة الحنفى ثم هرب بعد سقوط النجدات حتى ضاقت عليه الأرض من شدة الطلب حتى ليقول فى ذلك:

رأيت بلاد الله وهى عريضة ... على الخائف المطرود كفة حابل
تودى إليه أن كل ثنية ... تيممها ترمى إليه بقاتل[2]

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١١١

(٢) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٦

وقد لجأ إلى أحيح بن خالد بن عقبة بن أبي معيط فدلّ عليه فحبس ، وندد من محبسه بمضيفه الذى استجاره فدلّ عليه ، وفخر على بنى أمية فى قوله :

فإنى ذو غنى وكريم قـــوم — وفى الأكفاء ذو وجه عريض
غلبت بنى أبى العاصى سماحاً — وفى الحرب المذكرة العضوض
خرجت عليهمُ فى كل يـــوم — خروج القدح من كف المفيض[(١)]

وقد أتيح له أن يخرج من السجن فلحق بابن الزبير وظل معه حتى قتل . وقد انتهى به المطاف إلى عبد الملك فاستتابه من ولائه لمعارضيه فتاب ، وندد بهم جميعاً فيما عدا الخوارج إذ فخر بانتصار عبد الملك على الزبيرين الذين كان من شيعتهم كما فخر بانتصاره على الشيعة أيضاً [(٢)] .

وقد مر فى حديثنا عن الأزارقة ذكر كثير من شعرائهم كيزيد بن حبناء وعمرو القنا وعبيدة بن هلال اليشكرى والصلت بن مرة وزيد بن جندب وسبرة ابن الجعد وقطرى بن الفجاءة . وجدير بالذكر أن هؤلاء جميعاً كانوا من قادة الخوارج فى الحرب ولهذا فقد نجحوا فى التعبير عن مشاعرهم تعبيراً حارًّا وصادقاً ومتشابهاً إلى حد بعيد .

١

ولا ريب فى أن أبرز شعراء الأزارقة على الإطلاق هو قطرى بن الفجاءة[(٣)] فقد كان فارساً وقائداً من أعظم قادتهم ، وكان أديباً من أبرز أدبائهم وهو

---

(١) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٧
(٢) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٦
(٣) انظر فى ترجمته : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥١٧ الملل والنحل جـ ١ ص ١٨٣ ، والشذرات جـ ١ ص ٨٦ ، أمالى المرتضى جـ١ ص ٦٣٧ ، وفهارس الكامل والخزانة جـ ٤ ص٢٥٠ ، والفرق بين الفرق ص ٦٥ — ٦٦ ، وديوان الحماسة جـ ١ ص ٤٩ ، جـ ٢ ص ١١١ ، وفتوح البلدان ٤٠٣ ، مروج الذهب جـ ٣ ص١٣٨ .

لهذا أدق صورة للخارجى فى العصر الأموى ، بل إنه فى إعتقادنا يعد أصدق صورة للفارس العربى المسلم فى القرن الأول الهجرى .

وقد حظيت شخصية قطرى بشهرة لم تتح لكثير من الخوارج ، كما ظفرت أبياته القليلة التى حفظت لنا بشهرة لم تظفر بها أبيات شاعر خارجى غيره .

وتكاد شخصيته أن تكون مجهولة تاريخيًّا قبل توليه إمامة الخوارج وقيادتهم ، ولا نجد من أخباره قبل ذلك إلا ما رواه البلاذرى من أنه قدم سجستان مع صاحب شرطتها عبّاد بن الحصين الحيطى ضمن جماعة من الأشراف فى الفترة الواقعة بين سنتى ٤٢ ، ٤٤ للهجرة والمرجح أنه كان شابًّا فى هذا التاريخ ، وهو تاريخ يسبق توليه أمر الخوارج بخمسة وعشرين عامًا ، فقام بها نحوا من ثمان سنوات .

وهكذا لانكاد نعرف عن نشأته شيئاً إلا أنه من أشراف مازن من تميم ، وليس أدل على أن شخصيته كانت مجهولة قبل توليه أمر الخوارج من أننا لا نستطيع معرفة اسمه الحقيقى ويذهب ابن خلكان فى ترجمته إلى أن قطريًّا ليس اسمه وإنما هو نسبة إلى موضع بشاطئ الخليج بين البحرين وعمان هو اسم بلد كان منه أبوه .

وكانت مازن تنزل شواطئ الخليج الفارسى مما يلى البصرة والبحرين ، كما يذهب المسعودى إلى أن الفجاءة أمه وأنها شيبانية ، وهو لايعرف بغير هذه النسبة إلى بلده والانتساب إلى أمه ، وليس هناك من الأخبار ما يظهر سبب ذلك .

وتبدأ أخبار قطرى تعرف طريقها إلينا منذ سنة ٦٨ هـ عندما كان الأزارقة يعانون حرباً ضروساً من عدوين مختلفين : الأمويين بيد ممثلهم فى العراق عتاب بن ورقاء التميمى ، والزبيريين بيد مصعب بن الزبير والى العراق لأخيه عبد الله ورجاله ، وقد قاتلهم جيش الزبيريين بقيادة عمر بن عبيد الله ابن معمر فى سابور فلاذوا بكرمان حيث زحفوا منها إلى البصرة فتلقاهم مصعب بنفسه فانحرفوا ناحية الكوفة فى طريقهم إلى المدائن فخرج القباع والى الكوفة

للقائهم فعادوا ينحرفون ناحية البصرة ، ومن هناك اتجهوا ضاربين فى جبال ميديا حتى دخلوا الرى ، وهموا بدخول أصفهان ولكن عتاب بن ورقاء صدهم عنها وقتل أميرهم الزبير بن على ، وشجت رأس قطرى فى هذه المعركة ونصب فى أعقابها إماما للخوارج ، ولم يستحق قطرى هذا الشرف إلا بمكانته الحربية وبجهاده المخلص ، ولولا هذا لما كان يبلغ أن يكون إماماً وقائداً لأعنف فرقة دينية فى تاريخ الإسلام .

تاريخ حياة ابن الفجاءة ليس إلا مرحلة من تاريخ الأزارقة ، فلا نكاد نعرف عنه بعد ذلك إلا ما نعرفه من تاريخهم فى تلك الحقبة . ولاريب فى أن شجاعته ومهارته ومعرفته بأرض فارس معرفة دقيقة قد هيأته لذلك كما مكنته من الصمود أمام أعدائه مدة ثمان سنوات ظل يقذفهم خلالها من هناك حتى جأروا بالشكوى إلى مصعب وطالبوه بأن يرمى الأزارقة بالمهلب واستجاب لهم وتصدى المهلب لحربهم ثمانية أشهر قبل وقوع معركة مسكن بين عبدالملك ومصعب ثم حاربهم المهلب من بعد لحساب عبدالملك ، واستطاع قطرى أن يقود الأزارقة إلى النصر مراراً وأن يدق أبواب البصرة مراراً وأن يهزم كثيراً من جيوش الأمويين هزائم منكرة من مثل ما فعله بجيش خالد بن عبد الله ، ابن خالد بن أسيد والى البصرة الذى تولى حرب الأزارقة بعد المهلب وبجيش أخيه عبد العزيز ، كما نجح فى أن يعمل بتنسيق حربى متضامناً مع النجدات بزعامة أبي فديك مما مكنهم من بسط نفوذهم على منطقة الأهواز كلها من جديد حتى بلغوا فرات ميسان فى مواجهة البصرة يترقبون ، ويعزل عبد الملك خالداً عن البصرة بعجزه عن مواجهة الخوارج ويجعل البصرة تابعة لأخيه بشر بن مروان والى الكوفة ، ولكنه يعجز أيضاً فيما عجز فيه سلفه ، وتخفق حملته على الأزارقة فى جلولاء إخفاقاً مخجلا ، ويضطر عبد الملك بإزاء هذا إلى أن يعهد إلى المهلب بحربهم من جديد ، وينجح المهلب فى كشف الأزارقة عن الفرات وأن يطاردهم حتى بلغوا الجبال ، وماكاد أهل العراق تبلغهم وفاة بشر حتى عادوا أدراجهم إلى بلدهم . وقد ولى الحجاج العراق بعد وفاة بشر

ولقى صعوبات جمة فى رد الفارين من أهل العراق إلى مواجهة قطرى حتى استعمل العنف فى ذلك وقتل بعض الممتنعين وما ذاك إلا لشدة قتال الأزارقة .

وقد أهم الحجاج أمر قطرى فجعل يطلب مسالمته ويهدده فى رسائله إليه من مثل هذه الرسالة التى يرويها المبرد هكذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة. سلام عليك ، الموحد الله ، والمصلى عليه محمد عليه السلام ، أما بعد ، فإنك كنت أعرابيًّا بدويًّا تستطعم الكسرة ، وتخف إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومرقت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجع عما أنت عليه بمازين لك ، وادعنى فقد آن لك »[1]

ولم يجد التهديد ، ولم يرهب قطرى وعيد الحجاج ، وأرسل إليه رسالة يرد فيها عليه ، تقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على من اتبع الهدى ، ذكرت فى كتابك أنى كنت بدويًّا أستطعم الكسرة وأبدر إلى التمرة ، وبالله لقد قلت زوراً ، بل الله بصرنى من دينه ما أعماك عنه ، إذ أنت سائح فى الضلالة ، غرق فى غمرات الكفر ، وذكرت أن الضرورة طالت بى فهلا برز لى من حزبك من نال الشبع ، واتكأ فاتدع ، أما والله لئن أبرز الله لى صفحتك ، وأظهر لى صلعتك لتنكرن شبعك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ليست كتسطير الأمثال»[2] ، ولكن مقارعة الأبطال كانت كتسطير الأمثال لدى قطرى بن الفجاءة وضاق الحجاج بكتابه ، كما ضاق بمقارعته المهلب قراعاً لايبدو أنه سينتهى ، حتى قدم الحجاج بنفسه إلى الميدان ودفع المهلب إلى مطاردة الخوارج الذين زحفوا إلى فارس فتبعهم المهلب إلى أرجان ثم السروان واستمر يقاتلهم أكثر من عام انسحب بعده الخوارج إلى كرمان ، وطاردهم المهلب حتى ألجأهم إلى جيرفت . وسأل الحجاج رسول

---

(١) الكامل جـ ١ ص ١٨٠

(٢) نفس الموضع .

المهلب إليه بالظفر كيف أفلت قطرى منهم فأجاب بأنهم كادوه فتحول عن منزله ظنًّا منه أنه يكيدهم وأنهم لم يتبعوه لأن الليل حال بينهم وبينه .

وكان على المهلب أن يقضى عاماً ونصف عام حتى يقهر الأزارقة تماماً ، ولكن الحجاج مالبث أن ضاق بإبطائه ذرعاً فاستحثه كثيراً على الانتهاء وكان يرسل إليه الرسول تلو الرسول يحضه على مناجزتهم فيشهدهم القتال لكى يعودوا إلى الحجاج معتذرين عنه بقسوة قتال قطرى وجماعته .

ولكن الفرصة سنحت للمهلب فتمكن من الوصول إلى غرضه بالحيلة مستغلا شغب بعض الأزارقة وكان جمهورهم من الموالى على قطرى بسبب وقوفه مخلصاً إلى جانب بعض أتباعه المتهمين بقتل رجل ، وتبريره فعلهم بأن قتل رجل فى صلاح الناس غير منكر ، وأن للإمام أن يحكم بما يراه صالحاً وليس للرعية أن تعترض عليه .

ووجدت دسائس المهلب ووشاياته سبيلا إلى الشاغبين حتى انقسم الأزارقة قسمين انحاز بأكبرهما عبد ربه الصغير فانتحى فيهم ناحية يدعوهم إلى الانضمام إليه والانفضاض عن قطرى حتى تركوه فى قلة قليلة . وبدأ القتال بين الحزبين والمهلب يترقب متربصاً بهما جميعاً ، وشعر بعض الأزارقة بخطورة الموقف وحاولوا جمع الكلمة ونقل القتال إلى جيش المهلب المتربص ، ولكنهم فشلوا فى ذلك واستمر القتال بين حزب عبد ربه وحزب قطرى شهرا نجح بعده عبدربه فى إخراج قطرى فيمن تبعه من جيرفت ، فخندق قطرى وأتباعه على بابها قليلا ثم سار بهم فى اتجاه طبرستان ، فأنفذ إليه الحجاج جيشاً شاميًّا يقوده سفيان بن الأبرد الكلبى الذى قضى على شبيب وجنده الصفريين من قبل ، وخف لمؤازرته أهل الكوفة وأهل الرى وساروا جميعاً يطلبون قطريًّا فى شعاب طبرستان حتى لحقوا به ودارت معركة عنيفة انجلت عن مقتله بعد أن تفرق عنه أصحابه واحتز رأسه وحمل إلى الحجاج حيث ادعى أكثر من ثلاثة رجال قتله ، ثم أرسل الرأس إلى عبد الملك ، ويصور الطبرى نهاية قطرى تصويرًا مؤثرًا وقد انفض عنه صحبه ثم تركه خلصاؤه يهيم فى شعاب طبرستان لا يجد شربة ماء يطفئ

بها غليل عطشه وحتى يساومه بعض علوج طبرستان على شربة ماء فيقبض فرسه ثمناً لها(١) .

وتختلف الروايات فى تاريخ وفاته بين سنتى ٧٧ ، ٧٩ هـ ، ويبدو من مراجعة الروايات التى عنيت بحروب المهلب للأزارقة بعد تولى الحجاج العراق سنة ٧٥ هـ أنه قضى عاماً حتى أجلاهم عن فارس إلى جيرفت بكرمان وأنه ظل يقاتلهم بعد ذلك عاما ونصف عام حتى قضى عليهم فيكون معنى هذا أن وفاة قطرى كانت سنة ٧٨ هـ على التحديد .

وإذا تتبعنا أشعار قطرى فى مظانها لوجدناها قليلة بحيث لا تتفق وكثرة الأحداث التى عاشها وعاناها ، ويكاد يكون شعره كله شعر جهاد دينى حماسى ، وقد روى له أبو تمام ثلاث مقطوعات لا تتجاوز جميعها أربعة عشر بيتاً ، كما روى له المسعودى فى مروجه قصيدة من أحد عشر بيتاً ، وروى له البحترى فى حماسته بيتاً واحد ، كما روى له أبو الفرج والمبرد قصيدة فى أم حكيم عن وقعة دولاب بروايات مختلفة ، كما رويت له قطع قصيرة من بيتين أو أبيات مفردة فى مناسباتها كالذى يرويه الطبرى وصاحب الخزانة ، وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من شعره فهو قادر على أن يصور لنا بعض ملامحه وملامح شاعريته .

وأول ما نعرض له من شعره قصيدته يوم دولاب التى حار الرواة فى نسبتها إليه أو إلى غيره من الشعراء الخوارج واختلفوا فى روايتها كما قدمنا اختلافاً دلنا على أنه كانت هناك قصيدتان فى هذا الوزن وتلك القافية على اختلاف فى حركة الروى وأن أبيات الروايتين تداخلتا وهماً من الرواة لاتفاقهما فى الوزن والقافية والموضوع ولذكر أم حكيم فى كل منهما .

وقد رجّح أبو الفرج والمبرد أنها له وهو الصحيح بدليل ما فى الأبيات من غزل بأم حكيم التى إن لم يكن لدينا نص صريح يفيد أنها زوجته إلا أننا لا نعرف أحداً من الخوارج اقترن اسمه بها غيره ، كما أنه ليس لأحد من

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص٢٧٢ .

الخوارج غزل فى غير حليلته ، والأبيات بغض النظر عن كل هذا أشبه ماتكون بشعر قطرى وبروحه .

وقد استهلها بإعلان حبه لها وبأن حبها هو الشىء الوحيد الذى يشده إلى الحياة ويجعله متعلقاً بالعيش فيها ثم أخذ فى وصفها بأنها لم ير مثلها فى خفرها وحسنها الذى يذهب بسقم السقيم ويقود ذا البث إلى الشفاء، ثم كشف قطرى عن خلة من خلال الفرسان فيه وهى احترام المرأة والحرص على معاملتها معاملة رقيقة فى قوله :

لعمرك أنى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر جد لئيم[1]

وهو فى غزله يصور حباً قوياً لفارس شجاع مؤمن بواجبه غير باخل بنفسه فى سبيل ما آمن به فإذا هو يزهد إلى امرأته بطعانه وفتونه وفعله بأعداء عقيدته من إغراقهم والتنكيل بهم فيرسم لذلك صوراً معجبة ممزوجة بالاستهانة بهم والتحقير لشأنهم وهو يرى شيوخهم وقد طفوا على الماء وأخذ بعضهم يحاول النجاة سباحة دون جدوى بينما لم يجد البغض الآخر مناصاً من الفرار نحو ديارهم ، فلم يكن هناك يوم أقسى على العدو من ذلك اليوم الذى سالت فيها الدماء بغزارة ، وضربت فيه العقائل خدودهن على فتيان كرام أعزاء ، لاقوا حتفهم بدولاب ولم تكن أرض دولاب لهم موطناً ، وماذاك إلا لأنهم كفار لا حرمة لهم ولأنهم جرءوا على التصدى لأولئك الفتية من الأزارقة الذين باعوا الإله نفوسهم لقاء جناته ونعيمه ، فيقول :

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل وآلافها من حمير وسليم
ومال الحجازيون نحو بلادهم وعجنا صدور الخيل نحو تميم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خدا كريماً على فتى أعز نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً له أرض دولاب ودير حميم

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٥ ، الكامل جـ ٢ ص ١٨٢

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنـــا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعـــيم[1]

وقد تدعو إشاراته إلى القبائل بأسمائها إلى ظن البعض بعصبيته وعدم تجرده عن الإحساس بالقبلية ، ولكن الحقيقة أنه تجرد عن هذا الإحساس الضيق تجرداً تاماً وليس أدل على هذا التجرد من فخره على قبيلته ذاتها فى قوله :

* وعجنا صدور الخيل نحو تميم *

ويذهب كل مابين أيدينا من شعر قطرى فى الحماسة ووصف الحرب والجهاد والتسليم بحتمية الموت والزهد فى الحياة الذليلة .

وقد روى له أبو تمام ثلاث مقطعات فى حماسته ، وقد عنى قطرى فى إحداها بمناقشة فكرة الموت فيما بينه وبين نفسه معنياً بحضها على الصبر والثبات والتسليم بحتمية الموت الموقوت بأجل لايعدوه بحال من الأحوال ، فليس الخلود متاحاً لمخلوق ولا طول البقاء مما يجب أن يحرص عليه المرء إذ ليس من إمارات العزة وإلا لطال بقاء الجبناء وكان الخانعون أطول الناس أعمارا ، والموت آخر المطاف ، ونهاية كل حى ، لا يفلت منه أحد ، ومن لم يمت عبطة يمت هرماً بعد أن يفنى رفاقه وأحباؤه ويخلفوه وحيداً غريباً سئما. فحياته لا وزن لها ولا قدر والموت خير دون شك من مثل هذه الحياة .

وقطرى يحدث نفسه على هذه الصورة مبرهناً لها بالأدلة القاطعة على سخافة شعورها بالخوف وقلة غنائه فيما تريده من بقاء وكأنه يكشف لنا عما بداخلها من التعلق بالحياة مما يضفى على مشاعره واقعية إنسانية ملحوظة كما يبدو فى الأبيات :

أقول لها وقد طارت شعاعـــا من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يـــــوم على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلـــود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عـــز فيطوى عن أخى الخنع اليراع

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٥ ، الكامل جـ ٢ ص ١٨٢

سبيل الموت غاية كل حـــيّ فداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لا يعتبط يسأم ويهـــرم وتسلمه المنون إلى انقطـــاع
وما للمرء خير فى حيـــــاة إذا ماعد من سقط المتـــاع[1]

ويستهل قطرى المقطوعة الثانية التى يرويها له أبو تمام بحض رفاقه على الإقدام واطراح الإحجام والتردد والخوف من مواجهة الموت ، ثم ينطلق إلى الفخر بثباته حتى لكأنه دريئة للرماح التى تتعاوره من كل صوب ، ولايكاد يأبه للدماء تتحدر منه فتخضب أكناف سرجه وعنان فرسه غير متضعضع حتى يكون له الظفر فينصرف موفوراً من غير سوء والمقطوعة أربعة أبيات فحسب ونعتقد أنها كانت أطول من ذلك بدليل أن صاحب الخزانة يروى له بيتين يتابع فيهما وصف هيئته فى الميدان مصوراً كيف يتعرض للموت داعياً الكماة إلى النزال ، مؤمناً بأن نحر الكريم ليس محرماً على القنا ، والبيتان أشبه بأن يتوسطا هذه المقطوعة على هذا النحو :

لا يركنن أحد إلى الإحجـــام يوم الوغى متخوفاً لحمـــــام
فلقد أرانى للرماح دريئـــة من عن يمينى مرة وأمامى[2]
متعرضاً للموت أضرب معلماً شهم الحروب مشهر الأعـــلام
أدعو الكماة إلى النزال ولا أرى نحر الكريم على القنا بحرام[3]
حتى خضبت بما تحدر من دمى أكناف سرجى أوعنان لجامى
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جذع البصيرة قارح الإقدام[4]

ويستطيل هذا الفخر لدى قطرى حتى يبلغ مبلغ التحدى كما نرى فى البيتين اللذين يرويهما له أبو تمام وفيهما نبرة تعال واضحة إذ يقول :

ألا أيها الباغى البراز تقربـــن أساقك بالموت الزعافَ المقشبا

---

(١) حماسة أبى تمام جـ ١ ص ٤٩ والشذرات جـ ١ ص ٨٦
(٢) الحماسة جـ ١ ص ٣٥
(٣) خزانة الأدب جـ ٤ ص ٢٥٧
(٤) الحماسة جـ ١ ص ٣٥

فما فى تساقى الموت فى الحرب سبة على شاربيه فاسقنى منه واشربا[١]

ولقطرى أبيات أخرى مفرقة تذهب كلها فى الحماسة وتصوير الحرب ، والفخر بفعاله فيها أو فى تحضيض القاعدين من الخوارج مثل مادعا به أباخالد القنانى فى قوله :

أبا خالد يا انفر فلست بخالـــد وما جعل الرحمن عذراً لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهـــدى وأنت مقيم بين لص وجاحد[٢]

وواضح فى البيتين أنه يلوم أبا خالد وكان ممن رأوا القعود وأبوا حمل السلاح تعلقاً بالحياة وإشفاقاً على بناتهم وأبنائهم ، وهو هنا يدفعه إلى أن يخرج عن ديار الجاحدين الباغين وعلى الرغم من هذا الاختلاف بينهما فى الرأى فإنه لايبلغ بقطرى حد الهجاء وإنما يقتصر على اللوم وإخلاص النصيحة والإقناع حتى ليكاد شعره فى هذا السبيل يقطر تعاطفاً وتراحماً قويين من مثل قوله لسبرة ابن الجعد الذى نكل عن مذهب الخوارج وصار سميراً للحجاج الثقفى :

فإن الذى قدنلت يفنى وإنما حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا جعد ولاتك مغضباً على ظلمة أعشت جميع النواظر
وتب توبة تهدى إليك شهادة فإنك ذو ذنب ولست بكافر
وسر نحونا تاق الجهاد غنيمـــة تفدك ابتياعا رابحاً غير خاسر
هى الغاية القصرى الرغيب ثوابها إذا نال فى الدنيا الغنى كل تاجر[٣]

فعلى الرغم من أن الإيمان لديه لا يستقيم دون الجهاد ، وأن أبا خالد قد قعد عن نصرة مذهبه تعلقاً بالحياة ، بينما التوى سبرة عن طريق الخوارج تماما واتخذ أعداءهم أولياء فإن نغمة لومه لهما لاترتفع إلى القذف أو الإقذاع إذ هم جميعاً أصحاب مقالة واحدة آخر المطاف . ولذلك شاع فى الأبيات روح التعاطف حتى يرق أسلوبه رقة واضحة ويخفت الانفعال الغاضب حتى ليكاد يتلاشى لتحل محله رغبة صادقة فى الإقناع الهادئ المخلص .

---

(١) الحماسة ج ١ ص ٢٨١ .
(٢) الكامل ص ٥٢٩
(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٣ .

هذه هى صورة قطرى بن الفجاءة الشاعر لاتفترق فى شىء عن صورته فى التاريخ بل لاتكاد تفترق عن تاريخ فرقته التى آمن بمقولاتها فى شىء وهو بهذا إنما يمثل طائفة بعينها من الخوارج لا يمثلها غيره ، وهى تلك الطائفة المتشددة فى إيمانها والتى لا يستقيم الإيمان فى اعتقادها دون الجهاد الموصل إلى الجنة .

٢

ويمثل عمران بن حطان[١] فئة أخرى من الخوارج تختلف عن تلك التى يمثلها قطرى وهى وإن كانت فئة مؤمنة وشديدة الإيمان فى عقيدتها إلا أنها لم تقو على القتال لظروف مختلفة ، ففصلت فى اعتقادها بين الإيمان والجهاد ولم تر الثانى شرطاً لتمام الأول كما اعتقد الأزارقة ، فاستحقوا أن يعرفوا بمرجئة الخوارج .

وكان عمران رأس هؤلاء القعد من الصفرية وفقيههم وخطيبهم وشاعرهم وقد تميزت حياته أول الأمر بأنه فقيه ومحدث على مذهب الجماعة ، كما كان خطيباً يروع من يستعمون إليه فى عصر زياد[٢] ولكن ذلك كان قبل أن يدخل فى مقالة الخوارج كما يظهر فى قول أبى الفرج عنه من أنه كان قبل أن يفتن بالشراة مشتهراً بطلب العلم والحديث حتى بلى بهذا المذهب ، فضل وهلك لعنه الله[٣] .

وبسبب تشرّيه وتعرضه للعنة من أجل عقيدته تعرضت أخبار حياته أيضاً للضياع والنكران ، فنحن لا نعرف تاريخاً لمولده وكل ما نعلمه عنه أنه سدوسى من شيبان وأن نسبه ينتهى إلى ذهل بن ثعلبة بن وائل وأنه كان يكنى أبا سماك

---

(١) انظر فى ترجمته : أغانى (الساسى) جـ ١٦ ص ١٤٦ ، والكامل ص ٥٣٠ ، والإصابة جـ ٥ ١٨١ والخزانة جـ ٢ ص ٤٣٦ ، والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمالى المرتضى ص ٦٣٥ والبيان والتبيين جـ ١ ص ١١٨

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١١٨

(٣) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٢

وقد نشأ فى البصرة وعاش بها قبل تشريه ، معروفاً بطلب العلم والحديث ، يروى عن عائشة وأبى موسى وابن عباس وابن عمر مما يقطع بأنه ارتحل إلى الحجاز فى طلب الرواية ، وإن لم يكن فى أخباره ما ينص على ذلك ، إذ أن السيدة عائشة لم تبرح الحجاز قبل الجمل ، وأيضاً فقد عاش ابن عمر أكثر عمره معتزلا فى الحجاز . ويبدو من أخباره أنه كان عدلا فى روايته متحرياً الصدق[١] ، ومشهورا بالرواية الوثيقة حتى ليشهد له بذلك عبد الملك بن مروان نفسه[٢] .

وكذلك فقد شهر بالدهاء والمعرفة بالشعر والفقه وبأن له مسائل كثيرة من أبواب العلم فى القرآن والآثار فى السير والسنن وفى الغريب والشعر[٣] وتصوره الأخبار منذ نشأته إلى شيخوخته فقيها من أهل السنة يعتنق مذهب الخوارج فجأة فإذا هو رئيس فئة منهم وشاعرها وخطيبها وصاحب فتياها .

وتروى فى سبب تشريه روايتان تظهران اعتناقه لمقالة الخوارج أمراً غير متوقع وأولاهما تقول إنه تزوج ابنة عمه جمرة الخارجية بغية أن يردها عن مذهب الشراة فإذا هى ترده عن مذهب الجماعة ، بينما تذهب الأخرى إلى أنه كان معنّيا برد الناس عن أهوائهم ، وأنه جادل حرورياً فى مجلس فإذا هو يصبح فى نفس المجلس خارجياً[٤] .

ونحن نميل إلى الرواية الأولى ونرجح أن زوجه هى التى أغوته وأدخلته فى زمرة الخوارج وأن ذلك لم يكن فى شيخوخته كما يفهم من الروايتين السابقتين وإن لم يكن فى شبابه أيضاً .

ولعل السبب فى محاولة التأخر بتاريخ تشريه يرجع إلى أصحاب الحديث الذين حرصوا إزاء اضطرارهم إلى الأخذ عنه ثقة به على أن يقلصوا الفترة التى عاشها شارياً كما حرصوا على الاعتذار عن أخذهم عنه بأنه لم يمت قبل أن يرجع عن مذهب الخوارج[٥] .

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ١٢٧ . (٢) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٤
(٣) الكامل ٥٩٥
(٤) الأغانى جـ ١٦ ص ١٤٨
(٥) تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ١٢٧

وأقرب إلى طبيعة الأمور أن يتعلق عمران بابنة عمه ويقال إنها كانت ذات جمال وأن يستجيب إلى تأثيرها عليه إذ كان قبيحاً دميما ، حتى إنه ليروى أنها قالت له يوماً « أنا وأنت فى الجنة » قال : « ومن أين علمت ذلك ؟ » قالت « لأنك أعطيت مثلى فشكرت وابتليت بمثلك فصبرت والشاكر والصابر الجنة »[1] .

ويبدو أنها كانت ذات عقل وخلق ، وهى التى يقول فيها :

يا جمرانى على ما كان من خلقى ... مثن بخلات صدق كلها فيك
الله يعلم أنى لم أقل كذبـــاً ... فيما علمت وأنى لا أزكيك[2]

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحت جزءاً من نفسه ، وأضحى يعيش لها وبها ويشيد بأصحابها حتى بمن قتل منهم علىّ بن أبى طالب فى قوله :

يا ضربة من تقى ما أراد بهـا ... إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأفكر فيه ثم أحسبـــه ... أوفى البرية عند الله ميزانـــا
لله در المرادى الذى سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربتـــه ... مما جناه من الآثام عريانـــا[3]

ونراه يتأثر تأثراً بالغاً حين قتل أبو بلال مرداس بن أدية سنة ٦١ هـ حتى ليفكر إثر ذلك فى الخروج ويهم بحمل السلاح كارهاً أن يموت على فراشه متمنياً الموت فى قوله :

لقد زاد الحياة إلى بغضـــا ... وحبـــا للخروج أبو بـــلال
أحاذر أن أموت على فراشى ... وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفـــى ... كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنـــى ... لها والله رب البيت قالى[4]

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص١٥٣
(٢) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٣
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٩٢
(٤) خزانة الأدب جـ ٢ ص٤٤٠

وقد ظلت ذكرى مرداس عالقة بنفسه طويلا ، وقد تغير كل شيء بعد ذهابه حتى لينكر عمران بعده كل من كان يعرفه ، يقول :

أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يا مرداس بالناس[1]

وكأن الناس جميعاً ماتوا بموته ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يخرج وآثر القعود بل دعا إليه حتى عد رئيس قعد الصفرية .

ويبدو أن الذى قعد به هو حبه لزوجه جمرة إذ شغف بها شغفاً شديداً ، ولكن أبا الفرج يعلل ذلك علة أخرى فيذهب إلى أنه صار من القعد لطول عمره وعجزه عن حضور الحرب ، وكأنه يرى أن عمران اعتنق المذهب فى سن عالية والحقيقة أنه اعتنق المذهب قبل أن يكتهل ويصبح عاجزاً عن حمل السلاح . وإذا كان قد توفى على أرجح الأقوال سنة ٨٤ هـ فإنه يكون قادراً على الخروج أثر وفاة مرداس سنة ٦١ هـ وقد هم بذلك كما تفيدنا الأبيات السابقة ، ونحن نميل إلى أن إيثاره القعود كان بسبب هذا الحب الشديد لزوجه .

وكأنما كان يتنازع عواطفه نداءان قويان ، يدعوه أولهما إلى اقتفاء آثار أبى بلال مرداس الذى يعد رأس كل حرورى والذى اتخذه عمران إماماً ومثالا ، فيدفع بنفسه إلى الخروج مبغضاً الحياة راجياً الموت تحت ذرا العوالى بينما يدعوه حبه لجمرة وجمالها الذى كان يزين الحياة فى عينيه إلى التمسك بأهداب الحياة والعدول عن الخروج إلى القعود .

وواضح أن النداء الثانى كان أعلى صوتاً وأشد نفاذاً إلى قلبه حتى تغلب فى نفسه على نداء المثل الأعلى . ولاشك أن هذا الصراع قد أثر على نظرة عمران إلى الوجود فمنح فكره بعداً فلسفياً لا نجده عند غيره من شعراء الخوارج وظهر أثر ذلك على شعره فيما يمسح عليه من الأسى والحزن والتأمل .

وهكذا يبدو قعوده أمراً قد أكره عليه ولم يتخيره ، وهذا يفسر لنا ما يمكن أن يدعى تناقضاً بين قوله وفعله ، فقد قعد ولكنه مضى فى نفس الوقت يعبر

---

(١) نفس المرجع .

عن كراهيته للحياة ويذكر أنها عبء ثقيل كما مضى يحسن لغيره الخروج ويزينه .

وتمادى عمران فى ذلك لعهد الحجاج وكان ذلك أثناء الحرب العنيفة التى قادها شبيب ضد الدولة ، ولا يبعد أن يكون عمران قد مضى يحرض الناس على الانضمام إلى شبيب كما يبدو فى شكوى الحجاج منه إلى عبد الملك فى كتاب إليه قال فيه : « إنه قد أفسد علىّ أهل العراق » (١)

ويذهب الجاحظ إلى أنه كان فى هذه الفترة صاحب فتيا الصفرية ومقرعهم عند اختلافهم (٢) وكان شبيب يلقى نصراً بعد نصر مما أحفظ الحجاج ودفعه إلى الانتقام من عمران وأشباهه فضيق عليه الخناق حتى أهدر الخليفة دمه ، وأخذ الحجاج يتعقبه لتنفيذ أمر الخليفة فيه .

وقد انتهز عمران فرصة نجاح شبيب وزوجه غزالة فى هجومهما على الكوفة فى بعض أصحابهما ، وماكان من هلع الحجاج وانزوائه فى قصره ليسخر منه ويتهكم عليه ، فكتب إليه منددا باشتداده عليه وجبنه إزاءهما قائلا :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ... ربداء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الضحى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس ... تركت مدابره كأمس الدابر (٣)

وهو فى هذا التهكم إنما يتشفى منفساً عما يلاقيه من بطش الحجاج وتعقبه وما إن يفرغ الحجاج من شبيب وغزاله سنة ٧٧هـ حتى يشتد فى طلب عمران ومنذ ذلك الحين تبدأ صفحة جديدة فى حياته أقرب إلى القصص والخيال ، إذ تذهب كلها فى وصف تنقله وخوفه وارتحاله ، فقد فر على وجهه من الحجاج ينتقل فى القبائل متخفياً ومنتسباً فى كل حى نسباً يقربه منه ، ومازال يتنقل فى العراق شاعراً بمرارة الحياة وبما يحتمل فى سبيل عقيدته من خطوب

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٣

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٥٥

(٣) خزانة الأدب جـ ٢ ص ٤٤١

حتى ليخيل إلينا أنه لم يترك حيًّا دون أن ينزل به كما يصور ذلك قوله :

نزلنا فى بنى سعد بن زيـــد وفى عك وعامر عوتبـــان
وفى لخم وفى أود بن عمـــرو وفى بكر وحى بنى الفدان[1]

وكأن مطاردة الحجاج له قد سدت عليه السبل فى العراق فارتحل إلى الشام وانتهى إلى روح بين زنباع الجذامى أثير عبد الملك وسميره فانتسب إليه أزديًّا فأنزله منزلا آمناً نحو عام وبالغ فى إكرامه حتى توطدت بينهما أواصر صداقة عذبة لم يستطع روح أن يمسك لسانه عن التحدث عنها إلى عبدالملك فأخذ يذكر عنده صاحبه وحسن حديثه ، ويروى بعض أشعاره . وقد رأى عبد الملك فى حديث روح ما شككه فى أن صاحبه ليس إلا عمران بن حطان وحاول عبد الملك أن يتأكد من شكوكه فكلف روح بن زنباع أن يحمل إلى صديقه أبياتاً مشهورة يسأله عنها ويسأله أن يكملها ، ولم تكن تلك الأبيات غير أبيات لعمران نفسه قالها فى قاتل على ، ويبالغ عمران فى التقيه وفى التغرير بسائليه فيلعن قاتل الأبيات كما يلعن قاتل على ويكمل الأبيات فى حذر من أن يكتشف أمره ، ولكن عبدالملك يطلب إلى روح أن يجيئه به ، وما إن تبلغ عمران الدعوة حتى يبادر صديقه بأن هذا ما كان يبغى وأنه سيتبعه إلى قصر الخليفة على الأثر ، وما إن ينصرف روح إلى عبد الملك حتى يرحل عمران مخلفاً لروح رقعة فيها هذه الأبيات :

ياروح كم من أخى مثوى نزلت به قد ظن ظنك من لخم وغسان
حتى إذا خفته فارقت منزلـه من بعدما قيل عمران بن حطان
قدكنت ضيفك حولا لا تروعنى فيه الطوارق من أنس ولا جان
حتى أردت بى العظمى فأوحشنى ما أوحش الناس من خوف ابن مروان
فاعذر أخاك ، ابن زنباع ، فإن له فى الحادثات هنات ذات ألوان
يوما يمان إذا لاقيت ذا يمـــن وإن لقيت معدّيا فعدنـانى

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٤٨ .

لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية كنت المقدم فى سرى وإعلانى
لكن أبت ذاك آيات مطهرة عند التلاوة فى طه وعمران[1]

ويمضى عمران حتى ينزل بزفر بن الحارث الكلابى زعيم القيسية فى قرقيسيا فينتسب له أوزاعيا ويتصادف أن يراه عنده رجل كان قد رآه من قبل عند روح ، ويبدو أن زفر كان متشككا هو الآخر فى أمره فسأل الرجل هل يعرفه ؟ فقال أزدى رأيته عند روح بن زنباع ، فحينئذ صاح زفر به يا هذا أزديًّا مرة وأوزاعيًّا أخرى ؟ إن كنت خائفاً أمناك وإن كنت فقيراً جبرناك ، ولكن عمران غمغم بأن الله هو المغنى وهو يدبر فى نفسه أمراً ، وما يحل المساء حتى يهرب عن منزل زفر مخلفاً له هو الآخر رقعة فيها مقطوعة بديعة يصور فيها غموض أمره على من نزل بهم ، ويذكر ما كان بينه وبين روح متحسراً على الأيام الآمنة التى قضاها فى كنفه محقراً سؤال زفر له عن نسبه مؤكداً أنه لن يترك صلاته والإطالة فيها مهما تعجب من طولها بنو عامر رهط زفر ، وهذه هى الأبيات :

إن التى أصبحت يعيا بها زفر أعيت عياء على روح بن زنباع
ما زال يسألنى حولا لأخبره والناس من بين مخدوع وخدّاع
حتى إذا انقطعت عنى وسائله كف السؤال ولم يولع باهلاعى
فاكفف كما كف عنى إننى رجل إما صميم وإما فقعة القاع
واكفف لسانك عن لومى ومسألتى ماذا تريد إلى شيخ لأوزاع ؟
جاورتهم سنة فيما أسرّ به عرضى صحيح ونومى غير تهجاع[2]

ويعود عمران مرة أخرى إلى حياة المطاردة والاضطراب ، فيرتحل إلى عمان وهناك وجد قوماً من الخوارج اطمأن إليهم فكشف لهم عن حقيقته وأخذ يثير الناس للخروج وللثورة على الحجاج الذى أهمه أمره واشتد فى طلبه ، ونراه على أثر ذلك يحث راحلته إلى اليمامة واضعاً ما آل إليه حاله على هذا النحو من الاستخفاف والاستهانة بقسوة ظروفه قائلا :

طيرونى من البلاد وقالوا مالك النصف من بنى حكام

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٤ (٢) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٣

ناق سيرى قد جد خفّا بنا السـ ـير وكونى جوالة فى الزمـام
فمتى تلقنى يـد الملك الأسـ ـود تستيقنى بأن لاتضامى
قد أرانى ولى من الحاكم النصـ ـف بحد السنان أو بالحسام[1]

ولكن الحجاج مايزال يلج فى طلبه حتى يضطر إلى الاستخفاء بقرية روزميسان بالقرب من الكوفة بين جماعة من الأزد حمد عشرتهم وإسماحهم لأنهم لم يلجئوه إلى أن ينتسب إليهم شأن من نزل بهم من قبل ، وهو لا يرى مبرراً للإلحاح فى السؤال عن النسب والعصبية ما دام الإسلام يربط بين أبنائه برباط وثيق ، يقول عمران :

نزلت بحمد الله فى خير منزل نسر بما فيه من الإنس والخفر
نزلت بقوم يجمع الله شملهم وليس لهم عودٌ سوى المجد يعتصر
من الأزد إن الأزد أكرم أسرة يمانية طابوا إذا نسب البشر
فأصبحت فيهم آمناً لا كمعشر أتونى فقالوا من ربيعة أو مضر
أم الحى قحطان ؟ وتلك سفاهة كما قال لى روحٌ وصاحبه زفر
وما منهمـا إلا يسرُّ بنسبة تقربنى منه وإن كان ذا نفر
ونحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر[2]

وأقام عمران بقية عمره بين هذه الجماعة الأزدية حتى وافته المنية سنة ٨٤ هـ على الأرجح .

ومن عجب أن هذا الرجل الذى أقض مضجع الحجاج وأقلق عبد الملك على تلك الصورة لم يصل إلينا من شعره إلا قدر ضئيل ، فهل شغل بالخطابة التى شهر بها لعهد زياد عن الشعر ؟ فالجاحظ يذكر فى بيانه أن عمران كان يروع الناس بخطابته ولكننا لا نجد له شيئا من الخطب ولا يسع الدارس إلا أن يتساءل أمام قلة ما يلقاه من شعره : هل كان عمران مقلا؟ ونحن لانكاد نجد له من الشعر غير ما رواه أبو الفرج إلا القليل ولكن الذى يدفع عنه صفة

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٤
(٢) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٥ .

الإقلال أن مارواه أبو الفرج ذاته يبدو كأنه مبتور من قصائد طويلة كانت له .

ونحن لانشك فى أن كثرة شعره قد ضاعت أو على وجه الدقة قد ضُيّعت كما ضيعت خطبه وأخبار حياته ، فهو فضلاعن أنه لا يمثل مذهب الجماعة ، فقد طعن على أئمة المسلمين من مثل عثمان وعلىّ ، واستحسن مقتل علىّ وأشاد بقاتله وصوب فعلته فاستحق من المؤرخين والدارسين القدامى أن يصفوه بالضلال والهلاك ، وأن يصبوا عليه اللعنات كما فعل أبو الفرج ،أو أن ينكروه ويتجاهلوه كما فعل غيره فلم يذكره ابن قتيبة ولا ابن سلام كما لم يذكره الطبرى ، وكذلك فعل أصحاب كتب الحديث إذ تغاضى جمهورهم عن ذكره ولم يتجاوز من ذكره منهم مجرد الإشارة العابرة إليه مما يجعل ما كتب عنه فى هذا الصدد قليل الغناء ، حتى إن ابن سعد لا يذكره بأكثر من قوله إنه كان شاعراً وروى عن أبى موسى الأشعرى وغيره[1] .

وهذا أمر متوقع مادام أكثر المؤلفات التى وصلت إلينا يرجع أقدمها إلى عصر بنى العباس ، ولهذا فليس لنا أن نعجب لضياع شعره بقدر ما نعجب لوصول ما وصل منه إلى أيدينا .

وهذا القليل الذى وصل إلينا من شعره مفرقاً فى كتب الأدب والتاريخ يعطينا صورة واضحة عن شخصية عمران وعقيدته وفنه .

فهو يصدر فى هذا الشعر كله عن إيمان بالغ العمق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدرى الحياة ويزهد فيها ويهم بالخروج منتضياً سيفه متمثلا أستاذه أبا بلال مرداس بن أدية قديس الشراة لولا زوجه جمرة التى أكرهته بحسنها وبما حمل لها من حب على القعود ، ومن ثم فقد نشأ فى نفسه صراع عنيف بين الرغبة فى الموت والرغبة فى الحياة التى يتحمل فيها الأذى والمكروه ، وبهذا الصراع وبازدياد عنفه صارت الحياة وصار الموت على طرفى نقيض فى نفسه فلم يستطع أن يحسم هذا الصراع طيلة عمره ، وليس يعنى قعوده أنه اختار

(١) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ١١٣ .

بين الرغبتين فآثر الحياة الحبيبة إلى نفسه على الميتة الكريمة تحت ذرا العوالى فالصراع لم يتوقف فى نفسه أبداً حتى بعد أن فارق سن الجهاد فقد حل الموت المجرد محل الاستشهاد فى هذا الصراع العنيف واتخذ عمقاً فلسفياً رائعاً لم يعرف به أحد من شعراء الخوارج غيره ، وهكذا لا نستطيع أن نعده قاعداً بعد مفارقته سن الجهاد وإنما نعده مستمسكاً بالحياة أو مكرهاً على التشبث بها وهو بهذا إنما يكشف لنا عن جوهر النفس الإنسانية بما يصوره شعره من ضعفها أمام الحياة وتعلقها بها دون ادعاء للمثالية أو تشدق بها ، وهو يصرح بحبه الشديد للحياة فى قوله :

إذا ما تذكرت الحياة وطيبها إلىّ جرى دمع من العين غاسق[1]

فالنزعة الإنسانية فى شعره إذن ليست تياراً سطحياً وإنما هى تيار عميق لابد لرؤيته من التغلغل فى أعماق نفسه ، حقاً كان جمال جمرة سبباً فى تحوله إلى مقالة الخوارج وسبباً لقعوده عن القتال ولتنقله من مكان إلى مكان طلباً للنجاة من عقاب السلطان ، ولكن ليس معنى هذا أن تمسكه بالحياة كان بسبب من ذلك وإنما حقيقة الأمر أنه كان يحب الحياة فى أعماق نفسه متمثلة فى تلك الصورة الجميلة التى كانت عليها جمرة وأنه كان أيضاً يتوجس من الموت فى أعماق نفسه ، ولكن هذا التوجس ما يلبث أن يزول بقتل مرداس فإذا الحياة بغيضة وإذا الموت حبيب إلى قلبه إذا كان كموت مرداس ، ومن ثم يبدأ هذا الصراع العنيف فى نفسه .

وكان هذا الذى يتنازع عمران من الالتفات إلى جمرة والالتفات إلى مرداس يكسب شعره مسحة من الأسى العميق ومن خلال هذا الصراع العنيف ، استطاع أن يعبر تعبيراً عميقاً عن حب الحياة وأن يصور تعلق الخلق بها ، وهو ليس تعلق المحبين أو المشدودين إليها بسبب معين ولكنه التعلق الفطرى والنزوع الإنسانى فى حقيقته دون ادعاء ، حتى إن البائسين الجائعين الذين

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٤٨ .

كانوا أحق الناس باليأس من الدنيا يتعلقون بها ويتمسحون بأذيالها وهى على الرغم من ذلك فانية زائلة يقول عمران :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجوّع
أراها وإن كانت تحب فإنها سحابة صيف عن قليل تقشّع[1]

فهؤلا المتمسكون بالحياة أشقياء لم يتبينوا الطريق السوى ولكنه لا يلومهم كما لا يخفى أنه يسير على كره منه فى نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوى منها على شىء من الحب على الرغم من الفناء المحتوم الذى يترصد كل الأحياء :

أرنا لا نمل العيش فيها وأولعنا بحرص وانتظار
ولا تبقى ولا نبقى عليها ولا فى الأمر نأخذ بالخيار
كركب نازلين على طريق حثيث رائح منهم وسارى[2]

وهو وإن لم يثر على المتعلقين بالحياة إلا أنه يتخذ من الموت آية يحذرهم بها من الانسياق وراء متاعها الزائل ، والكالف بجمع المال الذى يجمعونه لغيرهم ، ويدعوهم إلى أن يجمعوا لأنفسهم ما يغنيها يوم الحساب فيقول :

حتى متى تسقى النفوس بكأسها ريب المنون وأنت لاه ترتع
فتزودنّ ليوم فقرك دائباً واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع[3]

وعلى هذا النحو كان لايزال يردد أن الموت سيأتى على الأحياء جميعاً كل بأجله لا مفر لكائن منهم من لقائه ، فكل يصير إلى فناء حتى الموت نفسه يموت ، كما يقول :

لا يعجز الموت شىء دون خالقه والموت فانٍ إذا ما ناله الأجل
وكل كرب أمام الموت متضع للموت ، والموت فيما بعده جلل[4]

فالموت سيموت فى النهاية ، وكأنه يطمئن نفسه بهذه الفكرة التى تفتح

---

(١) الخزانة جـ ٢ ص ٤٤٠ .
(٢) الخزانة جـ ٢ ص ٤٤١ .
(٣) نفس الموضع .
(٤) زهر الآداب جـ ٤ ص ٦ .

أمامها الطريق إلى الخلود ، فهو يدعوها إلى الاستسلام لجبروته المحتوم على أن تؤمن بأنه هو الآخر مهزوم فى نهاية الأمر ، فعلى الرغم من أن كل كرب يهون أمامه فهو هين إذا ما قيس بما وراءه ، ومادام الموت ينقله إلى دار الخلود فلينتظره إذن مغتبطاً به مستسلماً له ، وعمران بذلك كله إنما يعبر عن فكرة الموت التى تلقانا دائماً فى شعر الخوارج ونحن واجدون فى شعره سمات خارجية أخرى غير فكرة الموت ، فنراه يعبر عن فكرة لها خطرها عند الخوارج جميعاً ، وهى فكرة المساواة التى دعا إليها القرآن بقوله عز وجل :« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، فأنكر بذلك أن يكون النسب أو الحسب أساساً للتفاضل بين البشر فهم جميعاً سواء لاتمييز بينهم إلا بالتقوى ، وهى فكرة لم يكن من السهل الالتزام بها فى العصر الأموى إذ عادت فيه العصبية القبلية التى أطفأ الإسلام جذوتها فى فجره جذعة حيث التقطها الأمويون فأشعلوا أوارها ، ولم يكن العهد قد بعد بمرج رهط يوم قال عمران فى جماعة الأزد الشراة الذين قضى معهم بقية عمره فى روزميسان :

فأصبحت فيهم آمناً لا كمعشر ... بدونى فقالوا من ربيعة أو مضر ؟
أو الحى قحطان ؟ فتلكم سفاهة ... كما قال لى روح وصاحبه زفر
وما منهما إلا يسر بنسبة ... تقربنى منه وإن كان ذا نفر
فنحن بنو الإسلام والله ربنا ... وأولى عباد الله بالله من شكر[1]

فهو ينقد روح العصبية المقيت ، مبيناً ماكان له من خطر وشأن بعيد دالا على أولويته بقوله (بدونى) وهى دلالة موفقه إلى حد بعيد ، ثم يتجرأ فينعت تلك الروح بالسفاهة ، ويدل على ما يستشعره المتعصبون لقبائلهم من انعدام ثقتهم بأنفسهم وإلا ما كانوا يسرون بنسبته إليهم على الرغم من كثرتهم وسطوتهم ، وهو رجل وحيد فرد ، وما ذاك إلا لأنه عزيز بدينه لا بحسبه ولا بنسبه ، راض عن نفسه لذلك معتد بها ، ومثله فى ذلك كل مسلم لا يعتد بنسب غير دينه وبذلك جعل الانتساب إلى الإسلام والولاء له رابطة قوية

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٤٨ .

متينة تضمن المساواة بين أبنائه فى الصلات وهو أمر لا تحققه العصبيات القبلية التى تميز بين أبنائها بحسب قربهم أو بعدهم من العصب ، بل حسب مايتمتعون به من مال أو سلطان ، وعمران على الرغم من قعوده ومخالفته عن تشدد الأزارقة فى وجوب الخروج ، فإنه يتفق معهم فى تصورهم أن الإسلام لا يوجد إلا فى معسكراتهم ، وأن من عداهم من المسلمين ضال عن الطريق القويم ، فعندما فارق روح بن زنباع بعد انكشاف أمره ترك له وقعة فيها أبيات يثنى فيها عليه ويذكر ما أحاطه به من الأمن والكرم ، إلا أنه على الرغم من ذلك لم يبح لنفسه أن يستغفر له ، لأنه ليس فى رأيه سوى طاغية وكافر لا يستحق المغفرة ، يقول :

لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية ... كنت المقدم فى سرى وإعلانى
لكن أبت لى آيات مطهرة ... عند التلاوة فى طه وعمران[1]

وفى إشارته إلى هذه الآيات ما يدل على تأثره القوى بالقرآن الكريم حتى لنعتقد أن آياته جميعاً حاضرة فى ذهنه .

ويبرز فى شعره إيمان الخوارج القوى بعقيدتهم بروزاً واضحاً ، فنراه يعبر عن صلابة إيمانهم بمبدأ لا يتغير حتى يموتوا فى سبيله ، ويزرى على أعدائهم الذين يقاتلون فى سبيل المال فحسب دون نظر إلى عقيدة أو إيمان لا يعنيهم فى شىء أن يقاتلوا تحت راية ابن الزبير أو راية ابن مروان مادامت أجورهم تدفع إليهم لا يعبأون باليد التى تدفعها مؤمنة كانت أو كافرة .

وكان عمران قد نمى إليه أن بعض الجند يقولون : وما لنا لا نقاتل الخوارج ؟ أليست أعطياتنا دارة ؟ فقال عمران يتهكم بهذه النقيصة :

فلو بعثت بعض اليهود عليهم ... يؤمهم أو بعض من قد تنصرا
لقالوا رضينا إن أقمت عطاءنا ... وأجريت ذاك الفرض من بركسكرا[2]

---

(١) الأغانى جـ ١١٦ ص ١٤٩ .

(٢) أنساب الأشراف جـ ٧ ص ٩٩ معجم البلدان مادة كسكر .

فقتالهم من أجل العطاء فحسب ، ومن أجل بركسكر أو غيرها ، ودوافعهم إذن للقتال عرض زائل وليس نصرة مبدأ أو عقيدة .

وكما أزرى على هؤلاء الجند الذين يقاتلون من أجل المال ، كان عمران يزدرى أولئك الشعراء الذين مرنوا على التملق والكذب من أجل المال ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائحه فتعرض له بقوله :

أيهـا المادح العبـاد ليعطى إن لله ما بأيدى العبـاد
فاسأل الله ما طلبت إليهـم وارج فضل المقسّم العـوّاد
لا تقل فى الجواد ما ليس فيه وتسم البخيل باسم الجواد[1]

فهو يزدرى المديح كما لا يزدرى شيئاً آخر ، لأنه فى أكثره كذب ونفاق وامتراء ففيه يوصف الإنسان بما ليس فيه ، وتقلب الحقيقة وتضيع ، ولا يليق أن يفعل المرء هذا من أجل ما بأيدى الناس من مال ، فهم وما بأيديهم لله ، ولا عجب إذن فى أن يقول عنه الآمدى « إنه أشعر الناس فى الزهد »[2].

وهكذا كان عمران يعتقد وهكذا كانت طريقته ، لا يسأل ولا يمدح غير الله ولا يفكر إلا فى عقيدته وهو بهذا مثال دقيق للخارجى الذى تعمقته عقيدته حتى خالطت دمه .

وكما صرفته عقيدته عن المدح فقد نهته أيضاً عن الحرب وأبعدته عن تصويرها ، وعلى الرغم من شدة حبه لجمرة وتعلقه بها فقد صرفته عقيدته أيضاً عن الغزل حتى ليذهب كل ما توجه به من شعر إليها فى مناقشة فكرة الموت .

وبوحى من عقيدته أيضاً لم ينزلق عمران إلى الفخر القبلى بل آزرى عليه وسفهه . ويجمع شعر عمران كل الخصائص التى ميزت شعر الخوارج كالصدق فى التعبير عن الإيمان والصلابة فى اعتناق الرأى والدفاع عنه والبساطة فى تصويره ويبدو أن اشتغاله بالحديث قد أثر إلى جانب عقيدته فى صدقه وصراحته

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥١ .
(٢) المؤتلف والمختلف ص ٢٤٥ .

وبساطة تعبيره وقد شهد له بالصدق فى التعبير الأخطل فى مجلس ضمه وجماعة من الشعراء عند عبد الملك بن مروان إذ سألهم عبد الملك هل بقى أحد أشعر منكم ؟ فلما قالوا لا ، ابتدر الأخطل فقال : كذبوا ، قد بقى من هو أشعر منهم .. عمران بن حطان لأنه قال ما قال وهو صادق ففاقهم فكيف به لو كذب كما كذبوا ؟[1] .

وقد عرف له الفرزدق ذلك فقال : لقد أحسن بنا عمران حيث لم يأخذ فيما أخذنا فيه ولو أخذ فيما أخذنا فيه لأسقطنا[2] . وتروى فى اشتهاره بالصدق والتدقيق رواية أخرى ، تدل على أنه لم يكن يقول خلاف ما يعتقد وذلك أن زوجه جمرة نعت عليه مرة أنه كذب ، فوصف رجلا بأنه أشجع من أسد وهو لا يكذب قط وذلك فى قوله :

وكذاك مجزأة بن ثور كان أشجع من أسامة

فكان أن أجاب على ذلك بقوله : « إن مجزأة قد فتح مدينة ، بينما الأسد لا يستطيع »[3] .

فليس أدل من ذلك على صدقه وتوخيه الحقيقة وبراءته من الكذب والمبالغة وقد وهمت زوجه التى عرفت صدقه فى شعره فلم تدرك ما يحتاج إليه الشعر من الخيال ، وربما كان هذا الصدق الدقيق مسئولا إلى حد بعيد عن عدم تحليق خياله إذ ليس فى شعره من الخيال ما يبهر على الرغم من جنوحه إلى التأمل ، وكذلك فإن صدقه مسئول أيضاً عن اتساق تعبيره دون التواء أو تكلف أو اعتساف أو تقديم أو تأخير ، وعما نلاحظه من وضوح فكرة وقرب مأتاه وترتيبه وجرأته . ولم يكن شىء من هذا ليحفظ شعره من السقوط لو لم يتوافر له ما توافر من صدق العاطفة وحرارة الإحساس الذى يندفع فى شعره فإذا هو بمثابة الروح تدفع فيه الحياة .

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٥٥ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) الأغانى ج ١٦ ص ١٥٧ .

ولا يتجلى صدق عاطفته وحرارة إحساسه بقدر ما يتجليان فى رثائه لمرداس بن أدية الذى أحبه وأعجب به وتمثله وضاقت به الدنيا بعد رحيله عنها، يقول عمران فى رثائه :

يا عين بكّى لمرداس ومصرعه	يارب مرداسٍ اجعلنى كمرداس
تركتنى هائماً أبكى لمرزئتى	فى منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه	ما الناس بعدك يامرداس بالناس
أما شربت بكأس دار أولها	على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجلا	منها بأنفاس ورد بعد أنفاس[1]

فهذا حزن صادق على فقيد عزيز استحالت الدنيا المليئة بالأنس بعده موحشة يهيم فيها كئيباً لا يلوى على شىء ، ولا يتعرف على شىء فكل ما فيها فقد ذاتيته وتغير ، والناس ليسوا بعده بالناس ، وكأنما ماتوا جميعاً بموته ، أو ماتوا فيه ، ولا يخفف من هذا الجزع ما ينتهى إليه وما يؤمن به من أن الموت كأس دوار على شفاه البشر .

فصدق الشعور هنا هو الذى وهب الأبيات جمالها وتأثيرها ، ورقة الحس هى التى أوحت بتتابع جرسها الصافر الحزين ، وأتت بالألفاظ على هذه الصورة من السهولة والسلاسة .

هذه هى شخصية عمران وعقيدته وفنه فى القليل من شعره الذى وصل إلينا .

شيخ ديان زاهد متفقه دارس للقرآن يعالج فكرة الموت ويحذر بها الناس من الانخداع بالحياة ، ويدعوهم إلى ثواب الله ، وهو على فقهه بعقيدته لايدعى المثالية ولا يتشادق بها ولا ينكر أن قلبه ينطوى من الدنيا على بعض الحب لها والحرص عليها على الرغم من ثقته بفنائها وزيفها ولكنه إنسان يفهم جوهر الإنسان وحقيقة نوازعه ، وهو إنسان ذو عقيدة يؤمن بها فى صلابة ، على الرغم

(١) الخزانة جـ ٢ ص ٤٤٠ .

من قعوده عن القتال مكرهاً فليس ضير فى أن يقاتل بلسانه أعداء عقيدته ، فيثير الناس عليهم ويرميهم بالنفاق والانسياق وراء الضلال وما بأيديهم من المال دون مبدأ أو هدف سام وبالكذب والخداع طمعاً فيما بأيدى العباد . وكل من عدا الخوارج كفار لا تقبل منهم شفاعة ولا يرضى لهم استغفار ، وهو شديد الاعتداد بنفسه مستشعر للعزة بدينه الذى لا يدين لشىء سواه بالولاء الأمر الذى جعله يرى فى التعصب للدم والقبيلة سفاهة وإهداراً لأساس المساواة فى الإسلام . وشعره صورة من نفسه فى صدق العاطفة وحرارة الشعور ورقة الحس وسلاسة اللفظ وبساطة التعبير ودقة التصوير وهدوء الجرس ، وهو بكل هذا مثال دقيق لتلك الفئة التى تعمقتها مقالة الخوارج حتى الشغاف ولكنها لم تر القتال وإن لاقت فى قعودها بطشاً وعسفاً شديدين وهو فى هذا يختلف عن قطرى بن الفجاءة الذى لم ير الإيمان يتم إلا بالجهاد، كما يختلف عن الطرماح الذى اختلطت عصبيته لقبيلته بإيمانه بعقيدته ، ولكنه فيما دون ذلك صورة دقيقة لما كان عليه الخارجى فى إيمانه وخلقه وجرأته وتمسكه بالحق وصراحته فيه، وما كان يتمتع به الخارجى من بلاغة تقوم على الصدق والسهولة والصراحة وقرب المعنى وبساطته فضلا عن صدق عاطفته ورقة حسه وحرارة مشاعره وقوة نفسه وصلابتها ، وهى أمور كفلت لشعر عمران أن يهز النفس وأن ينفذ إلى القلب.

٣

والطرماح بن حكيم[1] نموذج آخر للخارجى يختلف كما ألمعنا عن ذلك النموذج المتشدد المتصلب فى إيمانه الذى يقرن الجهاد إلى الاعتقاد ولا يفصل بينهما كما يختلف عن النموذج الذى عرضناه فى عمران بن حطان فى قوة إيمانه

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٦ ، والشعر والشعراء جـ ٢ / ٥٦٦ ، والعينى جـ ٢ ص ٢٧٦ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح ص ٢٠٨ والبيان والتبيين جـ ١ ص ٤٦ ، جـ ٢ ص ٣٢٣ ، وتاريخ دمشق جـ ٧ ص ٥٢ ، وخزانة الأدب جـ ٣ ص ٤١٨ ، والعصر الإسلامى ص ٣١١ ، وأدب الخوارج ص ٩٤ وله ديوان نشره كرنكو فى لندن سنة ١٩٢٧ .

وإخلاص ولائه للعقيدة وإن لم ير الجهاد . فهو نموذج يفترق عنهما جميعاً ولذا آثرنا أن نقف عنده وقفة تستكشف أقطاره وتجلى ملامحه .

والطرماح شاعر قحطانى من طيئ ويكنى بأبى نفر وبأبى ضبيبة ومعنى الطرماح الطويل القامة ، وقد قيل إنه لقب بالطرماح لقوله :

ألا أيها الليل الطويل ألا ارتح بصبح وما الإصباح منك بأروح
بلى إن للعينيين فى الصبح راحة بطرحيهما طرفيهما كل مطرح[1]

وهو تعليل مفتعل ، ولا يمكن أن يكون لقباً ولم يعرف باسم غيره . وليست حياة الطرماح بأوفر حظًّا من حياة سائر الخوارج إذ لا نكاد نعرف من أحداثها إلا القليل فلا نعرف مثلا متى ولد ؟ ولا أين نشأ ؟ ولا متى مات على وجه الدقة ؟

وتختلف الأقوال بالنسبة لنشأته بين أن يكون نشأ بالسواد[2] أو أن نشأته كانت بالشام ثم انتقل بعد ذلك إلى الكوفة مع من وردها من جيوش أهل الشام[3] والذى نرجحه أنه نشأ بالشام لقربها من منازل طيئ ثم انتقل منها إلى الكوفة حسب رواية أبى الفرج ، ولمّا لم يكن فى حياته ما يدل على صلته بالجند فإننا لا ندرى الصفة التى كان عليها فى هذا الانتقال . وفى الكوفة نزل الطرماح فى بنى تيم اللات بن ثعلبة وكان فيهم شيخ من الشراة له سمت وهيئة فكان الطرماح يجالسه ويسمع منه حتى رسخ كلامه فى قلبه ، فلما دعاه الشيخ إلى مذهبه قبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحه حتى مات عليه[4].

وكما اختلفت الأقوال فى نشأته فقد اختلفت أيضاً فى الفرقة التى اعتنق عقيدة الخوارج على مذهبها ، فقال أبو الفرج إنه كان على مذهب الشراة الأزارقة[5] ولكنه يذكر عند الحديث عن الكميت أن الطرماح كان خارجيًّا

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٨ .
(٢) الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٦٦ .
(٣) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٨ .
(٤) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩ .
(٥) نفس الموضع .

صفْريًّا[١] وإلى ذلك أيضاً يذهب ابن قتيبة[٢] والجاحظ[٣] وذلك ما نرجحه لأنه كان من القعدة ولوكان من الأزارقة لما استحل القعود ، إذ كانوا يحرمونه ولا يجيزونه ، وهو لم يكن من قعد الصفرية الذين أمضوا قعودهم يحرضون على الخروج شأن عمران بن حطان وإنما كان من قعد الصفرية المسالمين ومما يقطع بأنه صفرى هذه الأبيات التى يتمنى فيها الخروج على نحو ما خرج الشراة ويشيد فيها بفرسان بنى شيبان وبنو شيبان فيمانعرف هم قادة الصفرية وقوام جندها وفيهم يقول :

فوارس من شيبان ألف بينهم تقى الله نزّالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنيادهم فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما فى المصاحف[٤]

ونستطيع أن نستخلص مما روى الأغانى بصدد نشأته وانتقاله إلى الكوفة فى مستهل حياته واعتناقه عقيدة الخوارج فور نزوله فى بنى تيم اللات بن ثعلبة أنه اعتنق مذهب الخوارج شابًّا ويبدو أن نزوله فى هذ الحى من ربيعة المعروف بعدائه القديم لتميم قد كان له أثر بليغ فى تعصبه على تميم تعصباً جعله يخصص جزءًا هامًّا من شعره لهجائها ، ولاشك أن انتقاله إلى الكوفة قد فتح أمامه أبواب الثقافة على مصاريعها فأخذ ينهل من ينابيعها المختلفة ويبذل جهداً كبيراً فى تحصيل فنونها مع عناية فائقة باللغة وغريبها ، وبالشعر وبأيام العرب وأنسابهم ، ومن ذلك ما يذكره أبو الفرج من أن محمد بن حبيب سأل ابن الأعرابى عن ثمان عشرة مسألة كلها من غريب شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة ، يقول فى جميعها لا أدرى ، لا أدرى[٥]

وقد تقدم ما يروى عن رؤبة من أن الطرماح والكميت كانا يصيران إليه فيسألانه عن الغريب ، فيخبرهما به ، ثم يراه بعد فى أشعارهما[٦]

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٠٨ .
(٢) الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٦٦ .
(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٦ .
(٤) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .
(٥) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩ .
(٦) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٨ .

وقد ذكر أبو عمرو بن العلاء أنه رأى الطرماح بسواد الكوفة وهو يكتب ألفاظ النبيط ويتعلمها ليدخلها فى شعره ، وقد عابه العجاج أو رؤبة فى ذلك[١] وكان للطرماح إلى جانب عنايته باللغة بصر نافذ بالشعر وأساليبه ، وتروى عنه فى ذلك روايات كثيرة منها أن ذا الرمة غضب منه يوماً لأنه رفض أن يقر بجودة شعره فتحداه بأنه لا يحسن أن يقول قوله فى هذين البيتين من قصيدته التى مدح فيها عبد الملك وهما :

وكائن تخطت ناقتى من مفازة إليك ومن أحواض ماء مسدم
بأعقاده القردان هربى كأنها بوادر صيصاء الهبيد المحطم

فقال الطرماح للكميت ساخراً بذى الرمة : انظر ما أخذ من ثواب هذا الشعر ؟ وهو إنما يغمز ذا الرمة بأنه لم يمدح عبد الملك فى القصيدة إلا بهذين البيتين فحسب بينما ذهبت القصيدة برمتها فى ناقته ملمحاً إلى قول عبد الملك لذى الرمة بعد أن أنشدها إياه « ما مدحت بهذه القصيدة إلا ناقتك فخذ منها الثواب »[٢].

وكان الطرماح ذكيًّا فطناً لا يخفى عليه من معانى الشعر شىء مهما دق واستتر ، وفى الأغانى أنه جلس فى حلقة وفيها رجل من بنى عبس ، فأنشده العبسى قول كثير فى عبد الملك :

فكنت المعلى إذ أجيلت قداحهم وجال المنيح وسطها يتقاقل

فقال الطرماح : أما إنه ما أراد أنه أعلاهم كعباً ، ولكنه موّه عليه فى الظاهر وعنى فى الباطن أنه السابع من الخلفاء الذين كان كثير لا يقول بإمامتهم ، لأنه أخرج عليًّا عليه السلام منهم فإذا أخرجه كان عبد الملك السابع ، وكذلك المعلى السابع من القداح فلذلك قال ما قاله ، واستدل الطرماح على رأيه بأن

---

(١) الموشح ص ٢٠٨ .
(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٠ .

كثيراً لم يذكر علياً فى ذكره للخلفاء صراحة فى موضع آخر إذ قال :

وكان الخلائف بعد الرسو ل لله كلهم تابعا
شهيدان من بعد صديقهم وكان ابن خولى لهم رابعا
وكان ابنها بعده خامساً مطيعاً لمن قبله سامعا
ومروان سادس من قد مضى وكان ابنه بعده سابعا[١]

ومن أطرف ما يقف عنده الرواة ، ويتحدثون عنه متعجبين فى حياته صداقته للكميت فالرويات تصورهما صديقين لايكادان يفترقان ، فى حال من أحوالهما على الرغم من اختلافهما فى العقيدة والعصبية ، يقول الجاحظ : « لم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرماح ، كان الكميت عدنانياً وكان الطرماح خارجياً من الصفرية وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة مالم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شىء مما تدعو هذه الخصال إليه[٢] .

ويذكر أبو الفرج أن الكميت سئل فى ذلك ، فقيل له : « لا شىء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماح على تباعد ما بينكما من النسب والمذهب والبلاد وهو شامى وأنت كوفى نزارى شيعى فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال : اتفقنا على بغض العامة » وكان الكميت يوقر الطرماح ويعتد بصداقته ، فقد أنشد قول الطرماح عن نفسه :

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال الكميت : أى والله وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والسماحة[٣] .

وأكبر الظن أنهما كانا يعتدان بثقافتهما على العامة ، وأن الذى وثق بينهما هذه الصلة لم يكن هذا فحسب وإنما احترافهما مهنة واحدة هى تعليم

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥١ .
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٦ .
(٣) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩ .

الناشئة فقد كانا معلمين كما كانا خطيبين وكانا أيضاً شاعرين ، يهتمان بمعارف معينة وينهلان من مورد واحد ، ويروى عن الطرماح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرى بفارس حيث عنى بتأديب الناشئة فيها ، ويظهر أنه كان ذا قدرة خاصة فى التدريس حتى ليروى الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرى فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء »[١] .

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدره عليه هذه المهنة ، إذ نراه يطرق بشعره أبواب الأمراء والولاة ، ففى أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد المهلبى وأراد أن يمدحه قاعداً فنحاه مخلد ودعا الكميت فأنشده قائماً ، وأمر له بخمسين ألف درهم فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه[٢] وفى أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسرى والى العراق فمنحه كل ما بعث به إليه واليه على سجستان من حمر وبغال ورجال وصبيان ونساء[٣] وكذلك مدح عبد الله القسرى فأمر له بعشرين ألف درهم[٤] .

والطرماح من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً إذ يطلب المال والدنيا ملحاً فى طلبهما بينما كان عمران زاهداً فيهما منفراً من التكاليب على جمع المال ومديح العباد طمعاً فيما بين أيديهم وهو يختلف فى ذلك عن شعراء الخوارج جميعاً الذين لا يرون الدنيا إلا سبيلا إلى الآخرة ولا يعتدون بزخرفها الزائل ولا بمتاعها الزائف وإنما يفنون فى عقيدتهم فناء تاماً حتى لا يبقى شىء غيرها تنزع إليه نفوسهم ، ولم يكن الطرماح من هؤلاء ، ولم يكن من الممكن أن يفنى فى عقيدته وقد حال بينه وبين ذلك أمران أولهما عصبية القبلية الشديدة

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٣٢٣ .
(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩ .
(٣) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٠ .
(٤) الديوان ص ١٣٩ ، ١٣٦ .

وثانيهما حبه الشديد لنفسه ولما يمكن أن يجعل هذه النفس سعيدة فى حياتها فى المتاع والمال والجاه .

فقد كان يستشعر عصبية شديدة لقبيلته بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وبخاصة الأزد قبيلة المهالبة ، وقد دفعه ذلك إلى أن يدخل فى معركة حادة مع الفرزدق ، شاعر تميم عدوة الأزد القحطانية ، ويذكر كرنكو ناشر ديوانه أن هجاءه للفرزدق كان بعد موت يزيد بن المهلب بسبب فرح التميميين وشماتتهم لسقوط المهالبة ، وتعصبه بوجه عام سواء أكان للقحطانية أم على أعدائها يبدو مخالفاً لروح الخوارج ، والمشهور عندهم أن الدين يسوى بين جميع المسلمين دون اعتداد بأية عصبية غير العصبية المذهبية .

ويبدو أن عقيدة الخوارج لم تكن تستغرق نفسه استغراقاً تامًّا ، وإنما كان مذهبه يأتى على هامش حياته بدليل تعصبه للأزد وللمهالبة منهم بنوع خاص وطغيان هذه العصبية على عقيدته حتى ليمدح يزيد بن المهلب فى قصيدتين فى ديوانه[1] ويرثيه أيضاً[2] ، وكذلك يهجو الفرزدق من أجله هجاء مقذعاً وهو الذى قاتل الخوارج مع أبيه ، ولم يكسر شوكة الأزارقة غير أبيه المهلب .

ويبدو أيضاً أن الطرماح لم يكن بدعًا فى هذا الاتجاه وإنما كان هناك فئة من الخوارج مثله لم تستطع العقيدة أن تقضى فى نفوسهم على التعصب القبلى والاستجابة له والصدور عنه وهى فئة كانت كثرتها من الأعراب الذين لم ينسوا انتماءاتهم العصبية فظلت لها فى نفوسهم الصدارة بينما أتى المذهب على هامش تلك النفس ، والطرماح يمثل هذه الفئة التى ترى الدنيا من خلال عصبيتها خير تمثيل ، فهو لم يمدح المهالبة وهو يدرك مدى عداوتهم للخوارج إلا لاعتزازه بطائيته أو قحطانيته ولأنهم كانوا يمثلون أمل القحطانية فى الوصول إلى السلطان وبخاصة بعد سقوط سلطان تميم ، وقد كانت اليمنية فى هذا العصر أشد ما يكونون تطلعاً إلى السلطان ، وليست فكرة القحطانى المنتظر ولا ثورة ابن الأشعث

---

(١) الديوان ص ١٩٣ .

(٢) الديوان ص ١٤٥ .

أو ثورة يزيد بن المهلب إلا من مظاهر هذا التطلع القوى الذى أذكاه ونفخ فيه اعتزاز بعض بنى أمية بالعنصر اليمنى والاعتماد عليه فى إدارة بعض الأقاليم وقيادة كثرة الجيوش وبخاصة جيش الشام ، وقد وجد الطرماح فى هذا مادة للفخر ببنى قومه إلى حد أن يمن على بنى أمية ارتفاعهم إلى الخلافة على اكتافهم بل إنه ليتجاوز ذلك إلى الفخر بالقحطانيين من أهل يثرب الذين نصروا النبى وآووا الإسلام وأعزوه وقد عاش الطرماح جانباً كبيراً من حياته فى العراق وخراسان وشهد الخصومات القبلية التى استعرت بين تميم والأزد وجرّت قيساً إلى الانضمام إلى تميم بينما دفعت بربيعة إلى الانضمام للأزد حتى انقسم الناس فى البصرة إلى فريقين متحاربين ، وكان لهذا الخلاف أثره فى تعصب الولاة وقتلهم وعزلهم ، وقد رأى الطرماح ما كان من نجاح الأزد فى الانتقاص من سلطان تميم بعد أن كانوا يقاسون منها ، وكيف ارتفع شأنهم بتولى المهالبة خراسان والعراق فمدحهم وهجا تميما ، حتى إذا ما دال سلطان الأزد وبدأ شأن تميم فى الارتفاع من جديد راح يصب غضبه عليها ويشبعها سبًّا وذمًّا ،، وكانت الأحداث القبلية التى وقعت فى خراسان مادة للطرماح من مثل مقتل قتيبة بن مسلم الذى تسببت فيه الأزد[1] وأفادوا منه بتولى يزيد بن المهلب ولاية خراسان خلفاً له ، وقد وجد الطرماح فى تلك الحادثة مجالا للفخر بما تم على يد الجيش القحطانى والأزد منهم بنوع خاص من قتل قتيبة حتى ارتفع بالأزد وبطيئ فوق كل القبائل .

كانت للعصبية إذن الصدارة فى نفس الطرماح بينما كان مذهبه على هامش حياته ، ولسنا نستطيع أن نزعم أنه لم يكن يؤمن بمقالة الخوارج كما لا يمكننا الزعم بأنه اعتنق مذهبهم أشد اعتناق وأصحه كما ذهب إلى ذلك أبو الفرج[2] .

ولكننا نقول إنه لم يخن مذهبه ولم ينحرف عنه ولكنه ابتعد عن روح الخارجى التى نعرفها فى ازدراء الدنيا وما فيها من مال ومتاع ومنازعات قبلية ومفاخرات عصبية ، وفناء تام فى العقيدة لايدع لغيرها منزعاً فى نفسه .

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٠٦ .

(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩ .

وقد حال بين الطرماح وبين أن يفنى فى عقيدته شأن الخوارج الممتازين إلى جانب ما تقدم من شدة عصبيته ، حب شديد لنفسه ، فقد كان هذا الحب محور حياته كلها ، تدور حوادثها عليه ، وتصطبغ بصبغه ، وشعره حافل بنفسه وبقومه وأبيه وجده ومه وزوجه وابنته ، ولم نر شاعراً من شعراء الخوارج يحتفل بنفسه وبذويه هذا الاحتفال غيره .

وقد قاده هذا الحب إلى استشعار عدة مشاعر تكاد تكون نرجسية أظهرها ما يحيط به نفسه من مديح مفرط واعتداد مسرف وإكبار يدفعه إلى الإحساس بأنه يستحق خيرا مما يلقى وأنه مظلوم ومكروه ومحسد وفى الحقيقة أن شعره يقنعنا بأن تلك الأحاسيس ليست كذباً ولا ادعاء مزعوماً وإنما هى صورة لنفس قوية حقًّا ، وفى أخباره ما يؤكد ذلك ويقطع به فقد أبى له كبرياؤه واعتداده بنفسه ألا يمدح مخلد بن يزيد المهلبى إلا قاعداً فلما طلب منه أن ينشد قائماً قال : كلا والله ما قدر الشعر أن أقوم له فيحط منى مقامى وأحط منه بضراعتى ، وهو عمود الفخر وبيت الذكر لمآثر العرب ، وقد شاطره الكميت عطاءه وقال له : «أنت أبا ضبيبة أبعد همة وأنا ألطف حيلة»[1] .

ولم يكن حبه لنفسه يقف عند مجرد الاعتداد بها والبعد بها عن مظنة الهوان وإنما تعدى ذلك أنه — بدافع من تقديره الشديد لنفسه وإعجابه بها — لم يكن يعرف لصاحب الفضل فضله ولا يقر له به ، ويذكر أبو الفرج أن ذا الرمة جاءه وكان جالساً مع الكميت فى مسجد الكوفة فاستنشد الكميت بعض شعره فأنشده ، فأثنى ذو الرمة عليه ، ثم استنشد الطرماح فأنشده فأثنى ذوالرمة عليه أيضاً ، ثم أنشدهما ذو الرمة فطرب الكميت لما سمع منه حتى ضرب بيده على صدر الطرماح وهو يقول : « هذا والله الديباج لا نسجى ولا نسجك الكرابيس »، فقال الطرماح : « لن أقول ذلك ولو أقررت بجودته»، فغضب لذلك ذو الرمة[2] .

وهكذا أبعدته عصبيته وحبه لذاته عن روح الخارجى الحقيقية فعاش

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩ .

(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٠ .

معيشة الناس من حوله واضطرب فيما اضطربوا فيه ، ولكن هذا لم يخرج به عن عقيدة الخوارج إذ كان يستشعرها ويعتد بها ويستهدى بهديها أحياناً كثيرة كما يبدو فى شعره الذى يذهب جزء كبير منه فى تصوير عقيدته وإيمانه بها ومدحه لرجالها حتى يهم فى أخريات أيامه بالخروج ويتمناه سائلا ربه أن يهبه الشهادة فى ساحة القتال .

وكما أن حياة الطرماح كلها بلا تاريخ يعين حوادثها ، فكذلك لا تفيدنا أخباره عن موته أين حدث ؟ ومتى وقع ؟ ولكننا نرجح أن ذلك حدث بعد عام ١٠٦ هـ فآخر أحداث حياته كما يظهر من شعره كان مدح خالد القسرى أثناء ولايته على خراسان وسجستان[1] .

ولهذا فنحن نرجح أنه مات فى الفترة ما بين سنتى ١٠٦ هـ ١٠٩ هـ وهى الفترة التى ولى فيها خالد خراسان للمرة الأولى .

ولم يحظ شعر شاعر خارجى بما حظى به شعر الطرماح من عناية ، فهو الشاعر الخارجى الوحيد الذى يعد بين أصحاب الدواوين . ولكن هذا لا يعنى أن شعره قد وصل إلينا بتمامه ، وإنما الحقيقة أن جزءًا هامًّا منه قد ضاع دون شك ويذكر كرنكو أنه نشر ديوانه عن نسخة يبدو منها تفكك شعره وضياعه بحيث لا يمكنه الحكم على حجم الديوان ولا معرفة جامعه ولكنها على الرغم من ذلك ذات قيمة حقيقية من حيث صدق نسبتها إليه ، وقوام هذه النسخة خمس قصائد هى القصائد الخمس الأولى فى الديوان ، وقد عنى كرنكو بأن يضم إليها مجموعة مبعثرة من شعره جمعها من كتب الأدب ، وهو عمل يتيح لشعره أن يدرس دراسة أوفى من أى شعر خارجى آخر .

وأول ما يعنينا من شعره ما خص به مذهبه وعقيدته ، ويذهب فى هذا المذهب من شعره ، عدة مقطوعات قليلة وعدة إشارات أخرى فى مواضع متفرقة من الديوان .

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٨ .

وأولى تلك المقطوعات تقول :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجى من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد ... إلا المنيب بقلب المخلص الشارى
أو الذى سبقت من قبل مولده ... له السعادة من خلاّقها البارى[1]

والطرماح فى هذه الأبيات يعلن عن خشيته الشديدة من النار ويقرر أن النجاة منها وقف على الخوارج وحدهم دون غيرهم إلا من شاء الله ، وهو يتمنى أن يدفع عنه النار بفوزة يفوزها وهى فوزة يفسرها قوله :

وإنى لمقتاد جوادى وقاذف ... به وبنفسى العام إحدى المقاذف
لأكسب ما لا أؤول إلى غنى ... من الله يكفينى عداة الخلائف
إذا العرش إن حانت وفاتى فلاتكن ... على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومى سعيداً بعصبة ... يصابون فى فج من الأرض خائف
عصائب من شتّى يؤلف بينهم ... تقى الله نزّالون عند التزاحف
هم منعوا النعمان يوم رؤية ... من الماء فى نجم من القيظ حانف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى ... وصاروا إلى موعود مافى المصاحف
فأقتل قعصاً ثم يرمى بأعظمى ... كضغث الخلا بين الرياح العواصف
ويصبح لحمى بين طير مقيله ... دوين السماء فى نسور عوا كف[2]

هذه هى الفوزة المنجية من النار ، ويعنى بها الخروج فى سبيل الله حتى يلقى حتفه قعصا بالرماح بين رفاق المذهب الأتقياء الشجعان الذين يسارعون بالرواح إلى موعود ما فى المصاحف ، لا يهمه فى شىء أن يرمى بأعظمه إلى الرياح ولا أن يكون قبره فى بطون النسور دوين السماء ، وإنما الذى يهمه ويقض مضجعه أن يموت فى فراشه ويحمل على نعش كما يحمل بقية الناس .

غير أنه يسوق فى تضاعيف هذه الأبيات ما يدل على أنه ليس خالص النية فى هذا الخروج لله ، وإنما هو من أجل دنيا يصيبها إذ يتمنى الخروج مقاتلا لينال إحدى الحسنيين فإما أن يقتل شهيداً وإما أن يصبح غنيًّا ، ويبدو

(١) الديوان ص ١٤٩ .
(٢) الديوان ص ١٥٥ .

أن أفواه الرواة وأيدى النساخ كان لها أثر كبير فيما لحق بهذه المقطوعة من تحريف فى بعض أبياتها واختلاف فى ترتيبها ، فصاحب الأغانى يرويها عن ابن شبرمة رواية تختلف فيما بعد البيت الثانى من هذه الرواية على هذا النمط :

فيارب إن حانت وفاتى فلا تكن ... على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكنّ قبرى بطن نسر مقيله ... بجو السماء فى نسور عواكف
وأمسى شهيدا ثاوياً فى عصابة ... يصابون فى فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تقى الله نزالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد مافى المصاحف[1]

وهو اختلاف لا يضر بمعانى الأبيات ، وإن كانت رواية الأغانى هامة لذكرها الفوارس الشيبانيين الذين ألف بينهم تقى الله وهم قادة الصفرية الشجعان من أمثال شبيب وغير شبيب من زعماء الخوارج مما يدلل على صفريته .

ومهما كان من أمر تضارب الروايات ، فالمعانى فيها لا تتأثر بذلك ، ويكاد يكون الطرماح قد استدعى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عقب رؤيته عمه حمزة وقد بقرت بطنه عن كبده « لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير[2] » .

وقد وصف الطرماح رفاق المذهب فى هذه المقطوعة على عادة شعراء الخوارج بالتقوى إلى جانب نعتهم بالشجاعة ، وقد ألح على هاتين الصفتين فى موضع آخر فقال :

لله در الشراة إنهـــم ... إذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجّعون الحنين آونـــةً ... وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفةً ... تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف أرجّى الحياة بعدهم ... وقد مضى مؤنسىّ فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهمُ ... بالفوز مما يخاف قد وثقوا[3]

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٣ . (٢) السيرة جـ ٢ ص ٨٦ .
(٣) الديوان ص ١٥٧ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .

وهو وصف طريف لحياة الخوارج فى الحرب والسلم ، ويذكرنا بخطبة أبى حمزة فى المدينة وأبيات عمرو بن الحصين ، فالشراة لا ينامون الليل لانكبابهم على العبادة انكباباً يتشوقون خلاله إلى الجنة ويشهقون خوفاً من النار حتى لتكاد صدورهم تنشق واجفة وقد أضحت الحياة بعد أن خلفوها وانطلقوا إلى الجنة موحشة كئيبة لا يستطيع أن يحياها بدونهم .

وعلى قبس من زهد الخوارج فى الدنيا ومتاعها الزائل وماجاء فى القرآن الكريم من ذم الشحيح الذى يجمع المال ويدخره دون أن ينفق منه على المحتاجين والمساكين وماجاء فيه من مسئولية كل إنسان عما قدمت يداه يوم لاينفع مال ولا بنون وتشهد رجله ويده بما قدم ، يقول الطرماح وكأنه يصوغ آيات بعينها من القرآن الكريم :

ترك الدهر أهلـه شعبا ... فاستمرت من دونهم عقـده
وكذاك الزمان يطرد بالنـا ... س إلى اليوم يومه وغـده
لا يليثان باختلافهما المـر ... ء وإن أطال فيهما أمـده
كل حى مستكمل عدة العمـ ... ـر ومود إذا انقضى عدده
عجباً ما عجبت للجامع المال ... يباهى به ويرتفـده
ويضيّع الذى يصيره اللـ ... ـه إليه فليس يعتقـده
يوم لا ينفع المخول ذا الثرو ... ة خلاّنه ولا ولـده
يوم يؤتى به وخصماه وسط الجـ ... ـن والإنس رجله ويـده
خاشع الصوت ليس ينفعه ... ثم أمانيـه ولا لـدده
قل لباكى الأموات لاتبك لا ... ناس ولا يستنع به فنده
إنما الناس مثل نابة الزر ... ع متى يأن يأت محتصده[1]

وهى أبيات من الجمال بمكان لاحتوائها على الحقيقة فى بساطتها وتصويرها صوراً تكاد تكون منتزعة بأعيانها من القرآن الكريم ، وقد ساقها الطرماح فى إطار حكمى واضح تحف به الموسيقى الهادئة الملائمة للمقام ، وتستمد هدوءها

(١) الديوان ص ١١٢ .

من البحر الخفيف الذى ينساب صدره إلى عجزه فى اطراد إلى القافية التى تسكن فى نهاية البيت فتقف بالقارئ وقفة هادئة هدأة التأمل والاعتبار ونحس أن الطرماح فى هذه الأبيات وفيما سبقها من المقطوعات التى تتناول مذهب الخوارج ورجالهم ، إنما يصور العقيدة وحياة المؤمنين بها من الخارج ولكنه لا يعبر عنها تعبيراً عن دخيلة نفسه أو مرتبطاً بمشاعره الذاتية حتى ليتحول فى هذه الأبيات إلى حكيم يصوغ معانيها صياغة عقلية بحتة ، تكاد تكون مستقلة عن نفسه مما يجعلنا نعتقد أنه فى شعره المذهبى كله لا يصدر عن تجربة شعورية بعينها ، وما سبب ذلك إلا أن عقيدة الخوارج لم تتعمق نفسه ولم تستغرقها استغراقاً بحيث تفنى فيها منازعه الشخصية المختلفة وظلت لها الصدارة فى نفسه مما بعد به عن روح الخارجى الحق .

وليس أدل على ذلك من أنه لم يستطع أن يخلص نفسه فى تمنيه الخروج للعقيدة وحدها مما وسم إيمانه بالنفعية والسطحية واقترب به اقتراباً تامًّا من خلق الصعلوك القديم فى قوله :

وإنى لمقتاد جوادى وقاذف ... به وبنفسى العام إحدى المقاذف
لأكسب مالا أو أؤول إلى غنى ... إلى الله يكفينى عداة الخلائف[1]

فهو فى قوله هذا لا يتميز عن الصعلوك الجاهلى عروة بن الورد إلا بتلك المسحة الدينية التى نسبت الغنى إلى الله فحسب ، فعروة يقول :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرًا أو يفيد غنيمة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

فليس بين قوله وقول الصعلوك غير نسبة الغنى إلى الله ، والطرماح بهذا يخالف عن روح الخوارج التى تزهد أعراض الدنيا وزخرفها زهداً يبلغ حد الازدراء وهو يعتد بسلطان المال على الرغم من تصريحه بالإنكار على جامعيه وتعجبه لأمرهم ، ذلك لأنه لا يرى المال غاية فى ذاته وإنما يراه وسيلة يستطيع

---

(١) الديوان ص ١٥٥ .

أن يحقق بها مطالبه وآماله ، وليس أدل على ذلك من قوله فى مديح عبدالله القسرى :

وشيبنى أن لا أزال مناهضاً بغير غنى أسمو به وأبوع
وأن رجال المال أضحوا ومالهم لهم عند أبواب الملوك شفيع
أمخترمى ريب المنون ولم أنل من المال ما أعصى به وأطيع [1]

وقد أمر له ممدوحه هذا بعشرين ألف درهم وقال له امض الآن فاعص وأطع [2] وكثيراً ما كان هذا الكلف بالجاه والسلطان واتخاذ المال سبيلا إليهما يصطدم فى نفسه بكبريائها وزهوها ، كما حدث فى مديحه لمخلد بن يزيد المهلبى ، فإذ به ينزل عن الواسطة إبقاء على الغاية ، ويضحى بكلفه هذا فى سبيل كبرياء نفسه والحفاظ عليها ، وحبه لنفسه واعتداده به ينتشران فى غير موضع من أشعاره انتشاراً واسعاً ، وقوياً ، حتى تشعرنا قوته بعظمة هذه النفس وبخطرها وتميزها كما فى ذلك البيت الذى جعله كرنكو عنواناً على ديوانه ، والذى يصور فيه الطرماح نفسه قابضاً على عنان المجد والشعر ، والذى يقول فيه :

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

ويذكر أبو الفرج أن رجلا رأى الطرماح فى مسجد البصرة وهو يخطر فى مشيته ، فتساءل من هذا الخطّار ؟ فسمعه الطرماح فقال : « أنا الذى أقول :

لقد زادنى حباً لنفسى أننى بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وإنى شقىٌّ باللئام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمائل
إذا ما رآنى قطّع الطرف دونه ودونىَ فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها من الضيق فى عينيه كفة حابل
أكل امرئ ألفى أباه مقصراً معاد لأهل المكرمات الأوائل

---

(١) الديوان ص ١٥٤ .
(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .

إذا ذُكرت مسعاة والده اضطنى ولايضطنى من شمّ أهل الفضائل
وما مُنعت دار ولا عزّ أهلها من الناس إلا بالقنا والقنابل[١]

وهو إحساس عارم بالاعتداد ينبع من ذات شديدة الإعجاب بنفسها ، شاعرة بأنها تستحق أكثر مما تجد ، ويصل بها إعجابها إلى حد تستشعر معه الظلم والحسد من الآخرين الذين لا يعرفون قدرها ، وفى أكثر من موضع نجده يصور عظمة هذه النفس التى أحنقت عليه الناس وجمعتهم على بغضه من مثل قوله :

يؤلف بين الناس بغضى ومالهم سوى فرط إجماع علىّ جميع
ومابى من شكوى لنفسى منهم ولا جزع إنى إذن لجزوع[٢]

وهكذا نرى اعتداده بنفسه قد ملك عليه أقطارها وكاد يقطع ما بينه وبين الناس كافة من وشائج ، ومن هنا نفهم سر تلك الرابطة القوية التى ربطت بينه وبين الكميت الذى كان يعطيه من نفسه مايرضى كبرياء نفسه وتعظيمها .

ويلحق بهذا الاعتداد بالنفس فى شعره اعتداد لا يقل عنه قوة بقومه من طيئ وقحطان وإزراء على أعدائهم من العدنانية وعلى تميم بوجه خاص ، وفخره بقومه فخر عادى لا يتميز عن الفخر التقليدى إلا بما يخلعه عليه من أثر الدين كأن يعتد ببلاء الأنصار وأهل الشام فى دعم الإسلام وتثبيت أركان السلطان مستغلا فى ذلك بعض الأحداث القبلية التى وقعت فى عصره كمقتل قتيبة بن مسلم الباهلى الذى كانت الأزد سبباً فى قتله ، فيقول :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج والأزد زعزع واستبيح العسكر
واستضلعت عقد الجماعة وازدرى أمر الخليفة واستحل المنكر
فبعزنا نصر النبى محمد وبنا تثبت فى دمشق المنبر
قوم هم قتلوا قتيبة عنوة والخيل جانحة عليها العثير[٣]

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٠ ، شرح التبريزى للحماسة جـ ١ ص ٧٧ .
(٢) الديوان ص ١٥٤ .
(٣) الطبرى جـ ٨ ص ١٠٦ .

وهو فى سبيل الفخر بقومه لم يبال بالاعتراف بخلافة الخليفة الأموى فى دمشق مخالفاً فى ذلك ما اتفق عليه الخوارج جميعاً من خلعهم وإنكار حقهم وقد أفاد الأزد من قتل قتيبة إذ حل يزيد بن المهلب محله والياً على خراسان فارتفع الطرماح يفخر ويمدحه مدحاً غالياً حتى ليلقبه بالملك فى قوله :

ملك تديـــن لـــه الملـــو ك ولا يجانبـــه المناضل[1]

وهو يكبر فيه يمنيته ويعظم من شأنها إعظاماً لنفسه ولقومه وعلى الرغم من ذلك؛ فمدحه سواء أكان ليزيد أو لغيره فاتر إلى حد بعيد ، وسبب ذلك إعظامه الشديد لنفسه لدرجة أنه لايكاد يرى خارج نطاقها أحداً قميناً بالمدح مما يجعله لا يتقن المديح أصلا ولهذا كان الفخر أقرب فنون الشعر إلى هذه النفس المتعالية ، ولهذا تراه عندما يقف بإزاء أعداء قومه من العدنانية يستلهم حوادث التاريخ القريبة فى صدر الإسلام ويشيد ببلاء قومه فى نصرته وردع المرتدين من تميم وقيس وخندف منددا بتحولهم عن الحق إلى متابعة سجاح على الباطل ولم يفته أن البعض قد يتهم قومه بأنهم أول من أوقد نيران الفتنة فاعتذر عنهم محتجاً بأنهم هم الذين أخمدوا ضرامها وبأنهم ضربوا معداً على الإسلام حتى انصاعت لهم ، يقول :

بهم نصر الله النبى وأثبتت عرى عقد الإسلام حتى استمرت
وهم دمغوا بالحق أيام خالد شياطين أهل الشرك حتى اطمأنت
شياطين من قيس وخندف غرها من الله ماكانت سجاح تملت
فإن يك منا موقدوها فإننا بنا خمدت نيرانها فاضمحلت
ونحن ضربنا يوم نعفى بزاخة معداً على الإسلام حتى تولت[2]

وكما كان الفخر أقرب فنون الشعر إلى نفسه ، كان الهجاء أيضاً يلائم سخطها الحانق على الغير ملاءمة جعلته يبدع فى هذا الضرب من الشعر إبداعاً ذهب معه القدماء إلى أن الطرماح إذا ماركب الهجاء فإنما يوحى إليه[3] .

---

(١) الديوان ص ١٩٠ . (٢) الديوان ١٤٣ .
(٣) الأغانى ج ١٠ ص ١٥١ .

وخير ما يمثل تفوقه فى هذا الفن هجاؤه لتميم إذ نراه يقذع فيه إقذاعاً شديداً ويحقرها وأحلافها تحقيرا ويصفها بالجبن والضعة والخيانة واللؤم والذلة أمام قومه الأزديين ، ونراه يصب حممه على الفرزدق شاعر تميم معرضاً بنسبه وبشعره ويمضى ينبش ماضى تميم وأيامها القديمة مبيناً عن تمكن الشعور القبلى من نفسه حتى ليكاد يكون جاهلياً خالصاً فى عصبيته يقول :

لاعز نصر امرئ أمسى له فرس ... على تميم يريد النصر من أحدِ
إذا مادعا بشعار الأزد نفرهم ... كما ينفر صوت الليث بالنقد
لوحان ورد تميم ثم قيل لها ... حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
أو نزّل الله وحيا أن يعذبها ... إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
وكل لؤم أباد الدهر ثلته ... ولؤم ضبة لم ينقص ولم يبد
لو كان يخفى على الرحمن خافية ... من خلقه خفيت عنه بنو أسد
قوم أقام بدار الذل أولهم ... كما أقامت عليه جذمة الوتد
فاسأل قفيرة بالمروت قد شهدت ... عسب الحطيئة بين الكر والنضد
أم كان فى غالب شعر فيشبهه ... شعر ابنه فينال الشعر من صدد
جاءت به نطفة من شرماء ضرى ... سيقت إلى شر وادٍ شق فى جدد
لا تأمنن تميمياً على جسد ... قد مات مالم تزايل أعظم الجسد
واسأل زرارة والمأمون مافعلت ... قتلى أوارة من رعلان واللـــدد
ودارم قد قذفنا منهم مائة ... فى حاجم النار إذ يلقون فى الخدد
ينزون بالمشتوى منها ويوقدها ... عمرو ولولا حلوم القوم لم تقد
وذاك أن تميما غادرت سلما ... للأسد كل حصان وعثة اللبد
ياطيئ السهل والأجبال موعدكم ... كمبتغى الصيد أعلى زبية الأسد[1]

وهذا التعريض بتميم يكثر فى شعر الطرماح بأساليب مختلفة من مثل هذه الصورة الشديدة الإقذاع التى يعرض فيها بلؤمها فيقول :

لو كان يبكى القبر من لؤم حشره ... بكت من تميم كل يوم قبورها[2]

---

(١) الديوان ص ١٤٥ (٢) الديوان ص ١٩١ .

ومن مثل قوله معرضاً بضعفها وادعائها ولؤمها :

بأى بلاد تطلب العز بعدما بمولدها هانت تميم وذلت
أفخرا تميميًّا إذا فتنة خبت ولؤماً إذا ما المشرفية سلت
تميم لطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضلت[١]

ويحتال حتى يخرجها إلى حظيرة الكفار فى قوله :

ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا وما ذبحت يوماً تميم فسمت[٢]

وهو هجاء منأى بما فيه من إقذاع ومرارة وسخرية وإغراق فى الإفحاش بالطرماح عن خلق الخوارج وما عرفوا به من دماثة وحياء ، ولكنه هجاء كأمتن ما يكون الهجاء وأقواه حتى ليقفز بصاحبه إلى طبقة الهجائين الأول فى هذا العصر الذهبى لفن الهجاء ، وقد كان الطرماح خليقاً به أن ينضم إلى فرسانه بل أن يتقدمهم فى هذا المضمار إذ بدأ بهجاء الفرزدق ولكنه انصرف عنه وإن كان هجاؤه لا يقل عن هجائه قوة ومتانة لمناسبته لشموسه وتعاليه وسوء ظنه بالناس ، وهو على متانة تركيبه وقوة لفظه يتمتع بسلاسة وسهولة واضحة . وربما كان ذلك راجعاً إلى أنه قصد له أن يشيع بين الناس .

ولا يحظى الغزل فى شعر الطرماح بنصيب وافر فضلا عن الغزل التقليدى الذى نطالعه فى مفتتح قصائده التقليدية التى يجارى فيها القدماء ويستهلها بالتحسر على الرحيل، وهو متكلف وفاتر إلى حد بعيد ، ولكننا نلمس صدق العاطفة وحرارتها فى غزله بزوجه سلمى التى كان مولعاً بها ، وقد حدثت بينهما جفوة جعلته يحن إليها على هذا النحو فى قوله :

إذا ذكرت سلمى له فكأنمـــا تغلغل طفل فى الفؤاد رضيع[٣]

ومن ذلك ما يخاطب به ابنه منها ، ويدعى الصمصام ، بصدد جفائها فيقول :

أصمصام إن تشفع لأمك تلقها لها شافع فى الصدر لم يتبرح

---

(١) ، (٢) الديوان ص ١٤٣ .
(٣) الديوان ص ٨١

هل الحب إلا أنها لو تعرضت لذبحك يا صمصام قلت لها اذبحى[١]

ويمثل الوصف أخطر جزء فى شعره فنية ، فهو فيه جاهلى فى موضوعاته وأسلوبه مغرب إلى حد بعيد فى ألفاظه ، حتى ليخيل إلى من يقرؤه أنه إنما يحاول بكل وسيلة ممكنة أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيها ، وهو جانب دفعه إليه اشتغاله بتعليم الناشئة ، ويمكن لكل من يطالع شعره أن يفرق فيه بين قسمين متمايزين : قسم أراد له أن يدور فى أفواه الناس فهو لا يغرب فيه وإنما يسوقه فى بساطة وسهولة وسلاسة كتلك الأساليب التى استخدمها فى وصف عقيدته والفخر بنفسه وبقومه وفى هجاء أعدائهم وقسم آخر أراد له أن يقتصر على الدوران فى أفواه المتأدبين حتى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة وفى أفواه اللغويين ومن يعنون بالغريب منها فهو قسم تعليمى محض ضمنه جزءاً كبيرا من شعره هو الجزء الخاص بالوصف .

وقد مر بنا كيف أن محمد بن حبيب سأل ابن الأعرابى العالم اللغوى المشهور عن ثمان عشرة مسألة كلها من غريب شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة[٢] .

فالطرماح فى هذا الجانب من شعره قد عمد إلى اصطناع متن صعب من غريب اللغة وكأنه يريد أن يبرهن على مقدرته اللغوية وأن يشغل بها بال الرواة وقد حدث هذا بالفعل حتى لنستطيع أن نقول إن هذا الإغراب كان له بعض الفضل فى حفظ شعره من الضياع نتيجة لعناية الرواة واللغويين واتخاذهم إياه مادة لاستشهاداتهم حتى إن صاحب اللسان قد استشهد بشعر الطرماح نحوا من مائة مرة ، كما يذكر ناشر ديوانه أنه جمع له نحواً من ستة وخمسين بيتاً من أساس البلاغة للزمخشرى ليس لها وجود فى مكان آخر أما بقية شعره فكان عرضة للضياع ، وليس أدل على ذلك من أن سيبويه قد استشهد فى كتابه بثلاثة أبيات من شعر الطرماح رواها لنا البغدادى فى خزانته ثم أردف أن

---

(١) الديوان ص ٩٦

(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩

القصيدة سبعون بيتاً[١] ولكن القصيدة فى الديوان لا تتجاوز اثنين وثلاثين بيتاً ، مما يدل على أن أكثر من نصف القصيدة قد فقد .

والطرماح فى هذا الجانب الوصفى من شعره يقلد الجاهليين ويتأثر صنعتهم تأثراً بعيداً فهو يحذو حذوهم فى ديباجة القصيدة إذ يستهلها بالغزل وبالتحسر على رحيل المحبوبة ، ثم يخلص إلى الفخر بنفسه وركوبه المصاعب ومعاناته قسوة الحر كالجنادب ، ثم يصف بعض ما يعرض له من حيوان الصحراء كالذئب ووصف حالاته والأرض التى يعيش فيها ، ثم يتحدث عن ناقته فيصفها وينتهى إلى وصف القطا كما صنع فى أولى قصائد الديوان التى يبدو فيها بوضوح تخلخل ظاهر بين وصفه لناقته ووصف القطا وربما كان ذلك لضياع جزء بينهما .

والطرماح لا يغرب فى أجزاء القصيدة المختلفة إلا فى الوصف ، وقد اضطرته رغبته فى جمع الأوابد والوحشى من الألفاظ إلى الاستعانة بالصور التقليدية القديمة واتخاذها قوالب يصب فيها ما يشاء من الألفاظ الوعرة ، مثلما فعل بتلك الصورة المعروفة فى شعر لبيد للبقرة الوحشية التى شبه ناقته بها فى قوتها واستطرد إليها فذكر أن السبع قتل ولدها فى غيبتها فلما عادت ثارت وهاجت وأخذت تعول وتنوح وزاد فى وصف حزنها فجعل الأمطار تشاركها فى عبراتها وتبكى لبكائها فاجتمع عليها الحزن والبرد والمطر حتى لجأت إلى جذع شجرة نائية لتقضى ثمانية أيام فى فزع حتى يجف ضرعها . ثم عرض لصراعها مع كلاب الصيادين وانتصارها عليها .

ويلفت النظر أن الطرماح قد التقط من هذه الصورة منظرا كرره فى عدة قصائد من شعره وهو منظر الحيوان وقد نزل عليه المطر خائفاً يستتر من كلاب الصيد التى تعدو عليه ، ونكاد نشعر أنه يتوخى نفس التركيب الذى استهل به لبيد وصف بقرته إذ يقول :

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها[٢]

---

(١) خزانة الأدب جـ ٣ ص ٤١٨ . (٢) الديوان ص ٦٤ .

فيقول الطرماح فى بداية الصورة :

أذاك أم ناشط توسنـــه جارى رذاذ يستن منجـرده

ثم يصف الحيوان فى خوفه وحزنه فيقول :

غاط حتى استبات من شيم الأر ض سفاه من دونها تـأده
طالع نصفه ونصفه يــوا ريه حفير يحفه سنــده
بيتته السماء من آخر الليـ ـل بشؤبوب مهذب برده
فهو طاو تزل عن متنه الـ قطر نفى إهابـه صرده
وغدا إذاً بدت له الشمس يج تاب كثيباً أخلى له عقـده

ويرسم بعد ذلك صورة الثور وهو يخوض معركة ضارية مع الكلاب تنتهى بانتصاره عليها فينطلق على أثرها يطوى الأرض ويعتسف البيداء :

بينما ذاك هاجه غدوة جمـ ـع ضراء مقلـد قـدده
ثم آدته كبرياء على الكـ ـر وحرد فى صدره يجـده
فهو ثان يذوحهن بروقيـ ـه معاً أو بطعنـة عنده
... تتشظى عنه الضراء فما تش بت أغمـاره ولا صيـده
فهى سبحه اليقين ومـالا قى عطاف والموت محـتده
إذ أقادته عادة كان يرجـو ها فوافى المنون ترتصـده
وغدا الثور يعتسف البيـ ـد لا يكتن من جريه ويجتهده

ولاشك فى أن الشبه قريب بين صورة الطرماح وصورة لبيد وفى أجزائهما وفى تفصيلاتهما ، بل فى بعض تراكيبهما ، وقد تكررت هذه الصورة أكثر من مرة فى عدة قصائد من شعره مما يقطع بأنه قد فتن بها فنقلها وأجاد رسمها مدلاً بقدرته على مجاراة القدماء مستغلاً هذه الصورة وأضرابها فى عرض متونه من غريب اللغة الذى كلف به .

ومن الإنصاف أن نذكر أن الطرماح لم ينزع إلى تقليد النهج الجاهلى إلا فى هذا الجزء الوصفى من شعره وهو لم يصنع ذلك لمجرد التقليد وإنما إظهاراً

لبراعته واستغلالا لهذه الصور التى فتن بها وأجاد رسمها بتحميلها متون الغريب .

وليس شك فى أنه كان يرى فى شعر الجاهليين مثالا يحتذى ولكنه لم يحتذ نهجهم إلا فى الوصف فلم يكن بإمكانه احتذاءهم فى الهجاء والفخر إذ قد تطور هذان الضربان بعد الإسلام تطورا واضحاً وظهر أثر الدين فيهما لدى الطرماح ظهوراً وإن كان شاحباً فهو موجود على أية حال .

وعلى الرغم من تقليد الطرماح للجاهليين فى الجزء الوصفى من شعره إلا أنه كان يستطيع أحياناً أن يأتى فيه بما يبهر إذ كان أبو عبيدة والأصمعى يفضلانه فى الوصف ويزعمان أنه أشعر الخلق لهذه الصورة التى يقول فيها :

مجتاب رحلة برجد لسراتـــه قددا وأخلف ما سواه البرجد
يبدو وتضمره البلاد كأنـــه سيف على شرف يسل ويغمد[١]

وقد شغل الرواة بغريبه شغلا حفظ بعض شعره من الضياع كما تقدم غير أنه أثار جدلا واسعاً حول قدرته اللغوية وحسه اللغوى فبعض أئمة اللغة لم يكونوا يحتجون بشعره ، وباستعمالاته اللغوية فيه وعده الأصمعى من المولدين الذين لا يحتج بشعرهم وزعم أنه استعمل عبارات أغار عليها من أقوال غيره دون أن يفهمها فهماً صحيحاً[٢] .

وهو إنما يعنى أخذه عن رؤبة الذى يروى أنه وهو فى فارس سأله الطرماح والكميت عن شىء من الغريب فلما كان بعد رآه فى شعرهما[٣] .

وكذلك تتهمه بعض الروايات بأن حسه اللغوى ليس دقيقاً وبأنه كان مشغولا بإدخال الكلمات النبطية فى كلامه بعد أن يعربها[٤] .

ويبدو أن نشأته فى الحضر كانت ذات أثر كبير فى ضعف حسه اللغوى

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥١
(٢) الموشح ص ٢٠٨ ، ٢٠٩
(٣) الموشح ص ٢٩٢ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٦
(٤) الموشح ص ٢٠٨

فجاء استخدامه للألفاظ البدوية الغريبة فى شعره استخداماً غير دقيق ، وتساق أمثلة كثيرة للتدليل على ذلك منها ماجاء فى وصفه لثور وحشى فى ليلة ممطرة تلفه سحابة سارية وطفاء أى مثقلة بالماء [١] ولكنه يصفها بأنها هف مبرد ولفظ هف ومعناه فارغ يدل على أن السحابة فارغة من المطر لا يناسب المعنى وحتى لوكانت (هيف) كما جاء فى رواية المرزوقى[٢] فمعنى هيف هو ريح الجنوب مما لا يتناسب مع السحابة الباردة المثقلة بالماء فيكون الطرماح قد خالف بذلك طريقة استعمال البدو كما يقول المرزوقى[٣] .

ومن ذلك أيضاً قوله فى مديح يزيد بن المهلب :

لأم تحن بـــه مـــزا مير الأجانب والأشامـــل[٤]

فقد صاغ جمع شمل على أشامل مجاراة للفظ أجانب الذى قبله[٥] .

وقد أخذ عليه[٦] أيضاً اختصاره لفظة تلاميذ إلى تلام بسبب القافية[٧] .

ولكن هذه المخالفات لا تنتقص من قدر الطرماح ولا من قيمة شعره الفنية والتاريخية واللغوية ، فهو وإن كان ما وصل إلينا من شعره لم يعرض من قرب وبصورة ملحوظة للمسائل السياسية فى عصره على الرغم من كونه شاعرا من شعراء المذاهب العقائدية فإنه يعطينا بشعره اصورة تقريبية لشخصيته المتفردة المتعالية ولتعصبه القبلى ويعطينا المفتاح الذى نفهم به عدم فنائه فى عقيدة الخوارج التى أعجب بها ، وإن لم يستطع أن يهبها كل نفسه فلم يبسطها فى شعره ولم يدافع عنها وإنما صورها من الخارج وعبر عن إعجابه بها وبإيمان رجالها وشجاعتهم فى الأبيات القليلة التى بقيت له على الأرجح من هذا الشعر فى هذا المضمار .

---

(١) الديوان ص ٩٠
(٢) الأزمنة والأمكنة ج ٢ ص ٧٨
(٣) العربية ص ٣٨
(٤) الديوان ص ١٩٠
(٥) العربية ص ٣٩
(٦) العربية ص ٣٩
(٧) الديوان ص ١٠٠

وعلى الرغم من إحساسنا بحرارة صدقه فى هذه الأبيات التى يصور فيها إيمان رفاقه ورغبته فى احتذائهم فإن عقيدته وتدينه لم يكن لهما الصدارة فى شعره إذ شغلته نفسه وحبه لنفسه وما كلف به من طموح دنيوى ساقه إلى محاولة توفير وسائل الجاه والعظمة لنفسه من مال وسلطان الأمر الذى بعد به عن روح الخوارج وجعله يضطرب فيما اضطرب فيه غيرهم من الشعراء الذين لم يلتزموا بعقيدة أو بمذهب ، فكان أن فخر بغير العقيدة وهجا بعناصر الهجاء القبلى فأقذع فى الهجاء وطلب بشعره الرفد والعطاء .

وهو بهذا كله إنما يمثل فى اتجاهه فئة بعينها من عامة الخوارج لم تكن تتمثل مثلا أعلى فى العقيدة والسلوك .

فإذا كان قطرى شاعر الفئة المتشددة من الخوارج فى إيمانها وسلوكها وكان عمران شاعر الفئة المتشددة فى إيمانها وخلقها دون اعتداد بالجهاد فإن الطرماح يمثل تلك الفئة التى لم تكن تتشدد لا فى إيمانها ولا فى سلوكها وإنما هى مؤمنة بعقيدة الخوارج وإن كان إيمانها لم ينسها ما ألفت من عصبية للقبيلة وغلو فى الاعتداد بالفردية واغترار بالدنيا وحب لمتاعها .